جهود سيبويه في التفسير

د. أحمد محمد الخراط

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

جهود سيبويه في التفسير

أ.د. أحمد محمد الخراط

نشر هذا البحث في مجلة البحوث والدراسات القرآنية الصادرة عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة.

العدد الأول / المحرم / السنة الأولى / ١٤٢٧هـ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ملخص البحث

يبدأ البحث بمقدمة موجزة عن نشأة علم التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، ونمو هذا العلم على أيدي التابعين في القرن الثاني للهجرة، وتحدَّث عن نهضة الدراسات اللغوية لخدمة التفسير، ويشير إلى أهمية كتاب سيبويه، ومشاركته علماء التفسير في الحديث عن بعض الآيات.

ثم يأتي المبحث الأول في تفسير سيبويه بعض مفردات القرآن من الأفعال والأسماء والأدوات، وعرض نماذج من كتابه، ووازنها بأقوال بعض المفسرين الذين أفادوا منه.

أما المبحث الثاني فكان عن بواكير التفسير التحليلي عند سيبويه، فعرض أقواله في هذا التفسير، ووازنها بأقوال بعض المفسرين.

ويأتي المبحث الثالث عن التفسير بتقدير المحذوف، ولسيبويه في ذلك وقفات متأنية، أفاد منها المفسرون.

وأشار المبحث الرابع إلى تفسير سيبويه الآيات المشكلة، فبيَّن معناها وإعرابها على المذهب الذي اختاره.

ويأتي المبحث الخامس عن توجيه القراءات عند سيبويه، وموقفه منها.

أما المبحث السادس فكان عن حواره مع علماء عصره في مسائل من التفسير.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

تَنزل القرآنُ الكريم بلسانٍ عربي مبين، وَفْقَ أساليبِ العرب وطرائق تعبيرهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُفَسِّر لصحابته – رضوان الله عليهم – معانيَ مفرداته وتراكيبه. وقد عقد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فصلاً في كتابه "مقدمة في أصول التفسير" قال فيه[1]: "يجب أن يُعْلَمَ أن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن لأصحابه معاني القرآن الكريم، كما بَيَّن لهم ألفاظَه، فقوله تعالى :﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم﴾ (النحل :٤٤) يتناول هذا وهذا". كما جمع الحافظُ السيوطيُّ في النوع الثمانين من كتاب "الإتقان"[2]رواياتٍ كثيرةً تتضمن الأحاديث الواردة في تفسير جملة من الآيات بحسب ترتيبها في المصحف.

تميَّز الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن الكريم، وشهدوا أسباب هذا النزول، بالفصاحة والمقدرة الفطرية على فَهْم مواقع كَلِمِه ومعاني نَظْمِه، وكانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عمَّا أشكل عليهم من تفسيره، ولكنْ لم يُدَوَّن شيءٌ ثابت من التفسير في عهد الصحابة، بل إنَّ ما أُثِر عنهم لا يتجاوز رواياتٍ منثورة، معظمُها أقربُ إلى التفسير اللغوي. وفي صحيح البخاري[3] أقوالٌ لابن عباس رضي الله عنه تَنْحو هذا المنحى.

وبعد وفاةِ النبي صلى الله عليه وسلم تَوَجَّه ثُلَّةٌ من علماء الصحابة إلى الأمصار، ومضَوا ينشرون فيها علوم التفسير، ويجيبون عن أسئلة الناس الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، ونشأ على أيدي علماءِ الصحابة مدارسُ في التفسير، تتلمذ فيها كبارُ التابعين الذين أخذوا عن الصحابة أنفسهم، أو عن تلاميذهم: ومن هذه المدارس[4]: مدرسة مكة، التي تصدَّر فيها الصحابي عبد الله بن عباس (ت:٦٨هـ)، وأخذ عنه سعيد بن جبير (٩٥) وعكرمة (١٠٥)، ومدرسة المدينة التي تصدَّر فيها أُبَيُّ بن كعب (٣٣)، وأخذ عنه السُّلَمي (٧٤) وأبو العالية (٩٠)، ومدرسة العراق، وتَصَدَّر فيها عبد الله بن

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ٣٥. وانظر: مجاز القرآن ٨/١.

(٢) الإتقان ٢١٤/٤ .

(٣) انظر: كتاب التفسير من صحيح البخاري (مع الفتح) ٢٥/٨، ٢٩.

(٤) انظر: تطور تفسير القرآن ٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مسعود (٣٢)، وبرز فيها الشعبي (١٠٥) وقتادة (١١٧). وكان أصحابُ هذه المدارس يعودون في تفسيرهم إلى: القرآن، والسنة، ومنطوق اللغة، والاستدلال، والاستنباط[١]. وقد شهدت هذه المدارسُ بواكيرَ تدوينِ التفسير لدى التابعين، وتَرَكَ أعلامُها طائفةً من الإملاءات والمصنفات التي تُنْسَبُ عادةً لأصحابها. ومن هذه التفاسير: ما أملاه مجاهد (١٠٤) وهو القائل[٢]:"استفرغَ علمي التفسيرُ"، وما أملاه الحسن البصري (١١٠)، وكتب[٣]سعيد بن أبي عروبة (١٥٦) التفسير عن قتادة (١١٧).

ومن هذه التفاسير[٤]: تفسير السُّدي (١٢٨) وتفسير مقاتل بن سليمان (١٥٠)، وتفسير ابن جريج (١٥٠)، وتفسير شعبة بن الحجاج (١٦٠)، وتفسير سفيان الثوري (١٦١)، وتفسير وكيع (١٩٧)، وتفسير سفيان بن عُيينة (١٩٨).

ويبقى تعيين التفسير السابق إلى وَصْفِه بأنه التفسير الشامل للقرآن الكريم بحسب ترتيب سوره، صعباً[٥]؛ لأنَّ بعضَ هذه التفاسير قد لا يتجاوز سوراً معينة.

ومع مرور الأيام، ودخولِ أقوام في هذا الدينِ لا يُتقنون العربية، تشتد الحاجة إلى بيان معاني التنزيل الحكيم، وإلى تدوين هذا البيان لتعمَّ فائدته.

وقد أخذ تدوينُ التفسير مَنْحَيين[٦]: الأول تفسيرٌ قائم برأسه لا يخالِطُه عِلْم آخر، والثاني: تفسير يُعَدُّ باباً من أبواب الحديث الشريف الذي نَشِط العلماء لتدوينه، في القرن الثاني.

وقد وضع علماءُ الأمة شروطاً للمفسِّر، يأتي على رأسها أنه لا يجوزُ لأحد أن يتكلم في كتاب الله من غير عِلْمٍ بلغات العرب وأساليبهم. وبيَّن ابن فارس[٧] أهمية العلم بلغة العرب.

---

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير ٣٨.

(٢) انظر: غاية النهاية ٤٢/٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤١٧/٦.

(٤) انظر: الإتقان ٢٠٨/٤ .

(٥) انظر: التفسير والمفسرون ١٠٠/١.

(٦) انظر: التفسير والمفسرون ٩٧/١ .

(٧) الصاحبي ٦٥. وانظر: الإتقان ١٨٥/٤ .

وليس بمستغرَبٍ أن تنهض الدراسات اللغوية لخدمة تفسير القرآن وتأثيلِ مفرداته، وبيانِ أساليبه، وتوجيه قراءاته[١]. وتخصَّصَتْ فئة من السلف بهذا الجانب ومن هؤلاء: أبو عمرو بن العلاء (١٥٤)، والخليل (١٧٥)، والكسائي (١٨٩)، ومؤرِّج (١٩٤)، إذ مضى هؤلاء وغيرهم يؤلِّفون رسائل وكتباً تُعَدُّ من بواكير التأليف اللغوي، المعْنِيّ بلغة القرآن وتفسير مفرداتها، والاستدلال على معانيها بشواهد من لغة العرب ولهجاتها.

كما شارك اللغويون مشاركة مباشرة في تفسير القرآن وبيان معانيه[٢]، وذلك عن طريق كتب معاني القرآن ولغاته وغريبه.

وقد بدأت هذه الكتب تتوالى مع مطلع القرن الثالث[٣]، فألَّف فيها الفراء (٢٠٧) والأخفش (٢١٥) والمازني (٢٣٦) والسجستاني (٢٥٥) والرياشي (٢٥٧) وغيرهم.

واكتسب كتابُ سيبويهِ أهميةً بالغة من بين مصنفات علوم العربية، وقد حاول فيه تأثيلَ قواعد اللغة وبيان لهجاتها، حتى إن عنايته باللهجات لا تَقِلُّ عن اهتمامه بالفصحى، فكان نُطْقُ القبائل العربية على اتساع بيئاتها وتبايُن منازلها، ظاهرةً مشتركة تُدْرَسُ جميعُها لاستنباط القواعد منها[٤].

وقد استشهد سيبويه بشواهد غزيرة من آيات القرآن الكريم، وسعى في بناء ضوابط اللغة مستنداً إليها، وعَلَّل أساليبها في الحركات الإعرابية والتقديم والتأخير، والحذف والزيادة. وقد استقى سيبويه كثيراً من أصوله في علوم العربية من القراءات المتعددة للقرآن الكريم.

وعلى الرغم من أن لسيبويه جهوداً واضحة في تفسير القرآن الكريم، أفاد منها المفسِّرون من بعده، وأخذوا من تحليلاته وأقواله القَدْر الكثير، فإننا لا نستطيع أن نضعَ كتابه ضمن مصنفات التفسير اللغوي المباشر؛ وذلك لأنه لم يُؤَلِّفْه لهذا القصد، وإنما ألَّفه لبناء قواعد اللغة، وكانت مسائل التفسير تَرِدُ في ثنايا مباحثه النحوية والصرفية، ومن هنا فإنَّ ما وَرَدَ فيه من تفسير تحليلي، وتفصيلٍ في مفردات القرآن

---

(١) انظر: الأدوات النحوية في كتب التفسير ٢٣.

(٢) انظر: تطور تفسير القرآن ٤٩ .

(٣) انظر: التفسير اللغوي ١٢٠ .

(٤) انظر: اللهجات في كتاب سيبويه ٧.

الكريم من أسماء وأفعال وأدوات، وتقديرٍ للمحذوف من آيات التنزيل، وحلٍّ لمشْكل إعرابها، وتوجيهٍ لقراءاتها، لا يَجْعلنا نَسْلُكه ضمن كتب التفسير اللغوي.

وتبدو أهمية كتاب سيبويه[1] من منظور علم التفسير في أنه يُمثِّل مرحلة من بواكير الجهود المبذولة في هذا العلم من طريقٍ غير مباشر، كما أنه يَحْرِص على تسجيل ما كان يدور في حلقات الدروس العلمية في عصره، تلك التي تدور حول معاني القرآن وتوجيه قراءاته.

وقد ذكر سيبويه مصطلح "المفسرين" ذِكْراً صريحاً في أربعة مواضعَ من كتابه، ممَّا يوحي بقُرْبه منهم، وحوارِه معهم في مسائل التفسير، وهذه المواضع هي:

١-ذكر سيبويه مذهب الخليل في قوله تعالى :﴿وَيكَأَنَّهُ لَا يُفلِحُ ٱلكَٰفِرُونَ﴾ (القصص: ٨٢) إذ يرى أن ﴿ وَيْ ﴾ مفصولةٌ عن ﴿ كأنَّ ﴾ والمعنى: "على أن القوم انتبهوا فتكلموا على قَدْر علمهم"، ثم قال[2]: "وأمَّا المفسِّرون فقالوا: ألم تَرَ أن الله".

٢-بَيَّن سيبويه معنى قوله تعالى :﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾(النحل: ٦٢) فقال[3]: "لقد حَقَّ أن لهم النار... وقولُ المفسرين معناها: حقاً أنَّ لهم النار، يَدُلُّك على أنها بمنزلة هذا الفعل إذا مُثِّلَتْ".

٣-ذكر أنَّ قوله تعالى :﴿ وَأَنَّ ٱلمسَٰجِدَ لِلهِ فَلَا تَدعُواْ مَعَ ٱللهِ أَحَداً﴾(الجن: ١٨)، معناه[4]: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً. وأمَّا المفسِّرون فقالوا: على "أُوحي".

٤-قال سيبويه[5]: وبَلَغَنا عن بعض المفسرين أن قوله عزَّ وجلّ ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ (البقرة: ٦١) [6] "إنما أراد مِصْرَ بعينها".

---

(١) النحو وكتب التفسير ١/١٠١.

(٢) الكتاب ٢/١٥٤ .

(٣) الكتاب ٣/١٣٨ .

(٤) الكتاب ٣/١٢٧ .

(٥) الكتاب ٣/٢٤٢.

(٦) هي قراءة الحسن والأعمش وآخرين. انظر: البحر ١/٢٣٤.

ويبقى في هذه المقدمة أن نشير إلى أن سيبويه غنيٌّ عن التعريف، وترجمته معروفة تُغْنينا عن الإسهاب في ذلك، وهو[1]: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنْبَر، فارسي الأصل، واستقرَّ في البصْرة، درس الحديث والفقه، وأخذ العلم عن الخليل وأبي الخطاب الأخفش الأكبر، والقارئ يعقوب الحضرمي، ويونس ابن حبيب، وأبي عمرو بن العلاء، وتوفي سنة ١٨٠هـ.

وقد أجمع أهلُ العلم على أهمية كتابه. ومن الطبيعي أن يَلْقَى قارئ كتابه صعوبة في أسلوبه؛ لأنه ينتمي إلى مرحلة مبكرة من مراحل التأليف اللغوي، فالمصطلحات لم تستقرَّ بعد، والقراءة في عباراته تحتاج إلى تمرُّس ودُرْبة؛ وذلك لأن التأليف في فنه ما يزال في نشأته.

ويأتي هذا البحث بعد مقدمته في ستة مباحث:

المبحث الأول: تفسير سيبويه بعضَ مفردات القرآن.

المبحث الثاني: بواكير التفسير التحليلي عند سيبويه.

المبحث الثالث: التفسير بتقدير المحذوف عند سيبويه.

المبحث الرابع: تفسير سيبويه الآيات المشكلة.

المبحث الخامس: توجيه القراءات عند سيبويه.

المبحث السادس: حوار سيبويه مع علماء عصره في مسائل من التفسير.

(١) انظر في ترجمته: تاريخ بغداد ١٩٥/١٢، طبقات النحويين للزبيدي ٦٦، وإنباه الرواة ٣٤٦/٢، ومعجم الأدباء ٢١٢٢/٥، والبغية ٢٢٩/٢ .

المبحث الأول: تفسير سيبويه بعضَ مفرداتِ القرآن

أ – الأفعال:

الفعل في العربية هو القسم الأول من أقسام الكلمة(١)، وللأفعال من مفردات ألفاظ القرآن نصيب واسع. وقد تحدَّث سيبويه في كتابه عن طائفة من الأفعال التي وردت في القرآن الكريم، من حيث أوجهُ ضبطها بالحركات ومعناها، وتضمينُ هذا المعنى معنى فعلٍ آخر، وصاغ قواعد في ذلك، كما أشار إلى تصريفها، وعُني بتقديرها إن حُذِفَتْ من السياق وذلك على المذهب الذي اختاره. بَيْدَ أن الذي يَعْنينا في هذا المبحث أن نرصد حديث سيبويه عن بعض الأفعال القرآنية التي خصَّها بشيء من التفسير من خلال دلالتها في الآية. ومن ذلك: أنه وقف على قوله تعالى :﴿ وَلَقَد عَلِمتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعتَدَواْ مِنكُم فِي ٱلسَّبتِ﴾ (البقرة: ٦٥)، وعلى قوله تعالى :﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِم لَا تَعلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعلَمُهُم﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقرر أن الفعل "علم" في الآيتين تَضَمَّنَ معنى عَرَف، ثم وضع ضابطاً مفيداً في ذلك، فقال(٢): "وقد يكون "علمتُ" بمنزلة عَرَفْتُ، لا تريد إلا عِلْم الأول، فمن ذلك..." وقد شرح السيرافي(٣)كلامه بقوله: "علمت" إذا أرَدْت به معرفة ذات الاسم، ولم تكن عارفاً به من قبل، كقولك: "علمتُ زيداً أي: عَرَفْتُه، ولم أكن أعرفُه من قبلُ، وليس بمنزلة قولك: "علمتُ زيداً قائماً" إذا أَخْبَرْتَ عن معرفتِك بقيامه، وكنتَ عارفاً من قبل".

ولمَّا فسَّر الطبري آية البقرة المتقدمة فَسَّرها كتفسير سيبويه، ثم استشهد عليها بآية الأنفال، صنيعَ سيبويه، إذ قال(٤): يعني بقوله ﴿ وَلَقَد عَلِمتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعتَدَواْ﴾ ولقد عرفتم، كقولك: قد علمتُ أخاك ولم أكن أعلمه، يعني عرفتُه، ولم أكن أعرفه، كما قال :﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِم لَا تَعلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعلَمُهُم﴾ يعني لا تعرفونهم الله يعرفهم".

---

(١) انظر: المساعد على تسهيل الفوائد ٦/١ .

(٢) الكتاب ٤٠/١.

(٣) شرح كتاب سيبويه للسيرافي ٣١٧/٢، وانظر: المفردات للراغب ٥٨٠، والدر المصون ٤١٣/١ .

(٤) جامع البيان ٥٩/٢.

وتحدَّث سيبويه عن معنى "جَرَم" في قوله تعالى :﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ (النحل: ٦٢)، ثم وازَنَ بين ما ذهب إليه في معناها وقول المفسرين، وقال[١]: فأنَّ، جَرَم عَمِلَتْ فيها؛ لأنها فعلٌ ومعناها: لقد حقَّ أنَّ لهم النارَ، ولقد استحق أنَّ لهم النارَ، وقول المفسرين: معناها حقاً أن لهم النار يَدُلُّك أنها بمنزلة هذا الفعل إذا مُثِّلَتْ، فـ "جَرَم" بعدُ عَمِلت في "أنَّ" عملَها في قول الفَزاريّ[٢]:

ولقد طَعَنْتُ أبا عُيَيْنةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزارةَ بعدها أن يَغْضَبوا

أي: أحَقَّتْ فزارةَ. وقد فسَّر الطبري[٣] "لا جَرَمَ" في موضع هود بـ"حقاً"، وأشار في موضع النحل[٤] إلى مَنْ سَمَّاهم "بعض أهل العربية" الذين يقولون: إنها فعل ماض، و "لا" قبلها ردٌّ لكلامهم أي: ليس الأمرُ هكذا. وقد سار على تفسير سيبويه طائفة من المفسِّرين[٥].

وأمَّا الراغب في المفردات[٦] فقد فسَّر "لا جرم" بقوله: "ليس بجُرْمٍ أنَّ لهم النار، تنبيهاً أنهم اكتسبوها بما ارتكبوه".

---

(١) الكتاب ١٣٨/٣ .

(٢) البيت لأبي أسماء بن الضريبة، وهو في المقتضب ٣٥٢/٢، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٥٥٠ .

(٣) جامع البيان ٣٧٣/١٢ .

(٤) الآية ٦٢ من النحل .

(٥) انظر: تفسير القرطبي ٣٧٣٧/٦، والبحر ٢١٢/٥.

(٦) المفردات ١٩٣.

ويتكرَّر في القرآن الكريم أسلوبُ "أرأَيْتَكم"[١]ونظائره، ويقف أمامه سيبويه مُفَسِّراً له بقوله[٢]:"أَخْبِرْني"، ويرى أن الاستفهام غيرُ مُراد. وقد سار على هذا التفسير طائفة من المفسرين كالطبري[٣]، والراغب[٤]، والقرطبي [٥]، والشوكاني [٦].

وذهب آخرون إلى أن الاستفهام فيه على بابه فهو حقيقيٌّ، والمعنى: أتَدَبَّرْت[٧]، أو أتأمَّلْتَ[٨].

وسأل سيبويه[٩]أستاذَه الخليل عن قوله تعالى :﴿ وَمَن يَفعَل ذَٰلِكَ يَلقَ أَثَاما * يُضَٰعَف لَهُ ٱلعَذَابُ يَومَ ٱلقِيَٰمَةِ ﴾ (الفرقان: ٦٨، ٦٩): ما سببُ مجيء الفعل "يُضاعَفْ" مجزوماً؟ فأجابه الخليل: "هذا كالأول – أي بدل منه – لأنَّ مضاعفةَ العذاب هو لُقِيُّ الآثام" فشرح له وجهَ مطابقة المعنى بين البدلِ والمبدلِ منه، وهذا هو التفسير الذي يعتمده جمهور المفسرين.

وفسَّر سيبويه[١٠] "كان" بمعنى وقع في قوله تعالى :﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيسَرَةٍ﴾ (البقرة: ٢٨٠). "كان" في هذا السياق اكتفت بفاعلها.

وثمة أسلوب قرآني يبدو في مجيء الجار والمجرور بعد الإرادة أو الأمر نحو :﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ﴾ ا(لنساء:٢٦) ونحو :﴿ وَأُمِرتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ ٱلمسلِمِينَ﴾ (الزمر: ١٢) وقد سأل سيبويه[١١] الخليلَ عن هذا الأسلوب ففسَّره له – وسوف تجد مبحثاً عن أهمية الحوار بين سيبويه وعلماء عصره في قضايا التفسير – بتقدير الفعل الذي قبل اللام بمصدرٍ مبتدأ، والجارُّ بعده خبره. والمعنى: إرادة الله للتبيين أو للأمر.

---

(١) نحو الآية ٤٠ من الأنعام، والآية ٦٢ من الإسراء .
(٢) الكتاب ٢٣٩/١.
(٣) جامع البيان ٢٤٠/٩.
(٤) المفردات ٣٧٤ .
(٥) تفسير القرطبي ٣٩٠٣/٦ .
(٦) فتح القدير ٣٥٥/٤.
(٧) معاني القرآن للفراء ٣٣٣/١.
(٨) المحرر الوجيز ٣١٧/١٠ .
(٩) الكتاب ٨٧/٣ .
(١٠) الكتاب ٢٦٠/١.
(١١) الكتاب ١٦١/٣.

وينجم عن هذا التقدير مسألةٌ تَغُضُّ من شأن الصناعة؛ لأنَّ فيه تأويل الفعل بمصدر من غير حرف مصدري. وذهب الفراء[١] إلى أنَّ اللام في موضع "أنْ". وذهب الزمخشري[٢] إلى ما هو قريب في المعنى من مذهب الفراء، فالتبيينُ نفسُه في الآية الأولى هو مفعول الإرادة، واللامُ زائدة مؤكدة لإرادة التبيين.

وذهب البصريون[٣] إلى أنَّ المعنى: يريد الله تحريمَ ما حرَّم، وتحليل ما حلّل، وتشريعَ ما تقدَّم؛ لأجل التبيين لكم، فمفعول "يريد" محذوف.

وتحدَّث سيبويه عن تصريف طائفة من الأفعال القرآنية، ومنها: الفعل "استحوذ"، فقد جاء على الأصل غير معتل[٤]، والفعل "ازدُجر" إذ حَدَث فيه إبدال التاء دالاً[٥]، كما تحدَّث عن إعلال الفعل "تزال" بالنقل والقلب[٦]، كما تحدَّث عن الفعل "زَيَّلْنا"[٧]، وأشار إلى القلب المكاني في الفعل "اطمأنَّ"[٨]، وذكر إعلال الفعل "قيل" بقلب الواو ياء[٩] والفعل "يُوقن" بقلب الياء واواً[١٠]. وقد تَلَقَّف علماء التصريف الضوابط التي وضعها سيبويه في هذا الجانب، وسعوا في تأثيل باب الإعلال والإبدال وبيان جذورِ هذه الأفعال.

مما تقدَّم يتبيَّن لنا أمثلةٌ من جهود سيبويه في تفسير الأفعال القرآنية، وقد أفاد فيما قدَّمه في هذا الباب المسيرة العلمية التي صاحبت خدمة كتاب الله على اختلاف علومها.

---

(١) معاني القرآن ٢٦١/١ .
(٢) الكشاف ٥٠١/١ .
(٣) انظر: الدر المصون ٦٥٩/٣ .
(٤) الكتاب ٣٤٦/٤.
(٥) الكتاب ٢٣٩/٤ .
(٦) الكتاب ٣٦٧/٤ .
(٧) الكتاب ٣٦٧/٤ .
(٨) الكتاب ٤٦٧/٣.
(٩) الكتاب ٣٦٤/٤ .
(١٠) الكتاب ٣٦٤/٤ .

ب – الأسماء:

في كتاب سيبويه تفسيرٌ لأسماءٍ قرآنية، تفسيراً لغوياً يبين معناها بلفظ يُرادِفها، أو يشرح دلالتها ضمن سياقها. وقد نجد في الروايات المأثورة ما يؤيّد تفسيره. ومن ذلك: ما ذهب إليه[١] في تفسير "الصِّبغة" في قوله تعالى: ﴿صِبغَةَ ٱللهِ﴾ (البقرة: ١٣٨) بأنه الدين. وأورد الطبري[٢] عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد روايات مأثورة تُفَسِّر الاسم بالدين، كما أورد رواية عن ابن جُريج تفيد بأنها الفطرة. وقد فَسَّره الراغب[٣] بأنه ما أوجده الله تعالى في الناس من العقل المتميّز به عن البهائم كالفطرة.

وذهب سيبويه[٤] إلى أن قوله تعالى :﴿حِجرا مَّحجُورا﴾ (الفرقان: ٢٢) معناه: حراماً مُحَرَّماً، وأورد الطبري[٥] رواياتٍ مأثورة عن الضحاك وقتادة تذهب إلى المعنى نفسه. والمعنى عند الراغب[٦] قريب من ذلك، فقد قال: "مَنْعاً لا سبيلَ إلى رَفْعِه ودَفْعِه".

وشرح سيبويه[٧] ﴿ نَفسا ﴾ من قوله تعالى :﴿فَإِن طِبنَ لَكُم عَن شَيء مِّنهُ نَفساً﴾ (النساء:٤) بقوله: "أنفساً"، ففيه لفظ الواحد يُراد به الجميع.

وفسَّر[٨]﴿أَشُدَّهُۥ﴾ بأنه جمعٌ، مفردُه "شِدَّة"، وقد وردت في قوله تعالى :﴿ حَتَّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الأنعام:١٥٢) وذكر النحاس رأيه كالمختار له في معاني القرآن [٩]، وعدَّه الراغب[١٠] قَدْراً يتقوى خَلْقُه الذي هو عليه فلا يكاد يُزايله بعد ذلك، فهو عنده مفرد وليس جمعاً.

---

(١) الكتاب ٣٨٢/١ .
(٢) جامع البيان ٦٠٤/٢.
(٣) المفردات ٤٧٥.
(٤) الكتاب ٣٢٦/١.
(٥) جامع البيان ٤٢٧/١٧ .
(٦) المفردات ٢٢٠ .
(٧) الكتاب ٢١٠/١ .
(٨) الكتاب ٥٨٢/٣.
(٩) معاني القرآن ٤٠٩/٣.
(١٠) المفردات ٤٤٧ .

وأشار سيبويه[1]إلى لفظة ﴿ ٱلأَعرَابِ ﴾ وقال: إنها صيغةُ جمع لأعرابي، وليست جمعاً لعرب، لأن العرب هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادي أم سكن القرى، والأعراب لا يُطلق إلا على مَنْ سكن البوادي. وقد وردت هذه اللفظة في قوله تعالى[2]:﴿وَجَآء ٱلمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلأَعرَابِ﴾ (التوبة:٩٠) وساوى سيبويه[3]بين المصدرين: إقامة وإقام من قوله تعالى :﴿ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (النور:٣٧) في الدلالة.

وعدَّد سبحانه في سورة النساء ما حرَّمَ نكاحه على الرجال، فقال :﴿ حُرِّمَت عَلَيكُم أُمَّهَٰتُكُم وَبَنَاتُكُم وَأَخَوَٰتُكُم﴾ ثم قال عَقِبَ ذلك:﴿كِتَٰبَ ٱللهِ عَلَيكُم﴾(النساء: ٢٣ ، ٢٤) وقد وقف المفسِّرون على لفظة "كتابَ"، وتحدَّثوا عن سرِّ مجيء التعبير القرآني بهذا المصدر المنصوب.

ذهب سيبويه[4] إلى أنَّ "كتاب" مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة وهي قوله: "حُرِّمَتْ" قال: "ولمّا قال :﴿ حُرِّمَت عَلَيكُم أُمَّهَٰتُكُم﴾ حتى انقضى الكلام عَلِمَ المخاطبون أنَّ هذا مكتوبٌ عليهم مُثَبَّتٌ عليهم، وقال: ﴿ كِتَٰبَ ٱللهِ ﴾ توكيداً. ومن ذلك قوله تعالى:﴿صُنعَ ٱللهِ﴾ (النمل:٨٨)، وقوله:﴿وَعدَ ٱللهِ﴾ (النساء: ١٢٢)؛ لأن الكلام الذي قبله وَعْدٌ وصُنْع، فكأنَّه قال جلَّ وعزَّ: وَعْداً وصُنْعاً وكِتاباً".

وذهب الطبري[5] إلى ما ذهب إليه سيبويه، فقال: "يعني تعالى ذكره كتاباً من الله عليكم، فأخرج "الكتاب" مصدراً من غير لفظه، وإنما جاز ذلك لأنَّ قولَه :﴿حُرِّمَت عَلَيكُم أُمَّهَٰتُكُم﴾ إلى قوله ﴿ كِتَٰبَ ٱللهِ عَلَيكُم﴾ بمعنى: كَتَبَ الله تحريم ما حرَّم من ذلك، وتحليلَ ما حَلَّل من ذلك، عليكم كتاباً".

---

(١) الكتاب ٣/٣٧٩ .

(٢) الآية ٩٠ من التوبة.

(٣) الكتاب ٤/٨٣.

(٤) الكتاب ١/٣٨١ .

(٥) جامع البيان ٦/٥٧٨ .

وذهب الكسائي[1] إلى أنَّ قولَه تعالى ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيكُم﴾ منصوب على الإغراء بـ ﴿عَلَيكُم﴾ والتقدير: عليكم كتابَ الله أي: الزموه، كقوله :﴿عَلَيكُم أَنفُسَكُم﴾ (المائدة:١٠٥)، وقد أجاز الكسائي بذلك تقديم الاسم المنصوب في باب الإغراء، واستدلَّ بهذه الآية، وبقول الشاعر[2]:

يا أيُّها المائحُ دَلْوي دُونكا

فـ "دَلْوي" منصوب بـ "دونك".

أمَّا الزجّاج[3] فقد أجاز في "كتاب" أن يكونَ منصوباً بـ "الزَموا" مقدرةً، و"عليكم" مُفَسِّر لـ "الزَموا"، ومَنَعَ نصبه بـ "عليكم" نفسها، لأنَّ قولَه: "عليك زيداً" ليس له ناصبٌ متصرِّف، فيجوز تقديمُ منصوبه.

وقد انتقد الطبري[4] هذا التفسير وقال: "والذي قال من ذلك غيرُ مستفيض في كلام العرب؛ وذلك أنها لا تكاد تنصِبُ بالحرف الذي تُغْري به إذا أَخَّرْتَ الإغراء، وقَدَّمْتَ المُغْرى به، لا تكاد تقول: أخاك عليك، وأباك دونك، وإن كان جائزاً. والذي هو أَوْلى بكتاب الله أن يكونَ محمولاً على المعروف مِنْ لسان مَنْ نزل بلسانه".

وتحدَّث سيبويه[5] عن قواعد ما اصْطُلِح عليه في النحو بالاشتغال، وذكر جواز الرفع والنصب في الاسم المتقدم في نحو "زيداً ضربته"، ثم قال: "وقد قرأ بعضهم: "وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ"[6] (فصلت:١٧)، إلا أنَّ القراءةَ لا تُخالَفُ؛ لأن القراءةَ السُّنة".

---

(١) انظر: الدر المصون ٦٤٨/٣.

(٢) البيت لراجز من بني أسيد بن عمرو، وهو في الإنصاف ٢٢٨، وابن يعيش ١١٧/١. والمائح: النازل في البئر ليملأ منه.

(٣) معاني القرآن ٣٦/٢ .

(٤) جامع البيان ٥٨٠/٦ .

(٥) الكتاب ١٤٨/١ .

(٦) وهي قراءة الحسن وابن هرمز. انظر: البحر ٤٩١/٧ .

وهو بهذه القاعدة الكلية يضع منهجه في التعامل مع القراءات القرآنية، فيحترمها لأنها "السُّنة"، ولا يُقِرُّ مخالفتها، وكتابه مليء بتوجيه كثير من هذه القراءات. أمّا ما عدَّه أحد الباحثين[١]موقفاً من سيبويه تجاه بعض القراءات المتواترة، فَهِمَ منه رَدَّها، فذلك يحتاج إلى مقام ثان لاستعراض نصوصه، وبيان الرأي الصحيح منها.

وتحدَّث سيبويه[٢]عن تصريف طائفة من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم حديثاً أقرب إلى علوم اللغة ببيان الإبدال والإعلال فيها، وما طرأ على حروفها: من حذفٍ وتقديم وتأخير وإدغام، وكان تأثيلُه لهذه الألفاظ مصدراً أساساً في أحكامها. ومن ذلك حديثه عن أوَّل[٣]، وخطايا[٤]، والطاغوت[٥]، وأخت[٦]، وآدم[٧]، ولفظ الجلالة الله[٨]، واللهمَّ[٩]، وأَمَة[١٠]، وأُناس[١١]، والإنسان[١٢]، والبريَّة[١٣]، ومَثُوبة[١٤]، والحوايا[١٥]، وتحية[١٦]، والحَيَوان[١٧]، ودماء[١٨]، وستة[١٩]، والمحيض[٢٠]،

---

(١) انظر: الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، للدكتور أحمد مكي الأنصاري.

(٢) الكتاب ١٤٨/١ .

(٣) الكتاب ١٩٥/٣ .

(٤) الكتاب ٥٥٣/٣ .

(٥) الكتاب ٢٤٠/٣ .

(٦) الكتاب ٢٢١/٣.

(٧) الكتاب ٥٥٢/٣.

(٨) الكتاب ١٩٥/٢ .

(٩) الكتاب ١٩٦/٢ .

(١٠) الكتاب ٥٩٩/٣ .

(١١) الكتاب ١٩٦/٢.

(١٢) الكتاب ٢٥٩/٤ .

(١٣) الكتاب ٥٥٥/٣.

(١٤) الكتاب ٣٤٩/٤ .

(١٥) الكتاب ٦١٨/٣ .

(١٦) الكتاب ٣٩٧/٤ .

(١٧) الكتاب ٤٠٩/٤.

(١٨) الكتاب ٥٩٧/٣.

(١٩) الكتاب ٢٣٩/٤ .

(٢٠) الكتاب ٨٨/٤ .

والمرجع[1]، والتبيان[2]. وقد أفاد المفسرون وعلماء التصريف من حديث سيبويه عن هذه الأسماء، وأخذوا عنه ضوابطها، وكان قوله فيها لَبِنَةً ذات شأن في بناء مشيد.

جـ – الأدوات:

نشأ علم معاني الأدوات العربية، وترعرع في محيط تفسير القرآن[3]؛ إذ حرص المفسرون أن يكشفوا عن معنى الأداة في سياق الآية. وهذا المعنى للأداة الواحدة قد يختلف من آية إلى أخرى، فيتتبَّعه المفسر ليكشفَ عنه، وليس بمستغرَب أن نجد سبب الاختلاف عند بعض المفسرين في تفسير آية بعينها، إنما هو اختلافُهم في معنى الأداة الواردة في هذه الآية.

وقد توافَرَتْ للنحاة مادة غزيرة في هذا العلم من خلال ازدهار مباحث التفسير. وكتاب سيبويه غنيٌّ بمباحث الأدوات من خلال أبواب مستقلة لها، بالإضافة إلى ما كان ينثره من هذه المسائل في ثنايا الأبواب النحوية.

وقف المفسِّرون أمام الأداة "لعل" من قوله تعالى :﴿ فَقُولَا لَهُ قَولاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخشَى﴾ (طه:٤٤)، واستشكلوا بقاءها على بابها من الترجّي. قال السمين[4]: ولا يستقيم أن يَرِد ذلك في حَقِّ الله تعالى؛ إذ هو عالم بعواقب الأمور".

بَيْدَ أنَّ سيبويه لم يستشكل بقاءها على الترجّي، وعلل ذلك بقوله[5]: "العباد إنما كُلِّموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يَعْنُون، فالعِلْمُ قد أتى من وراء ما يكون، ولكن اذهبا أنتما في رجائكما وطمعكما ومبلغكما من العلم، وليس لهما أكثرُ من ذا ما لم يعلما". وعلى هذا يكون معنى الترجي مُنسحباً على المُرْسَل، وهو هنا موسى وهارون.

---

(١) الكتاب ٤/٨٨ .

(٢) الكتاب ٤/٨٤.

(٣) انظر: مفتاح السعادة ٢/٣٧٩، كشف الظنون ١٧٢٩، الأدوات النحوية في كتب التفسير ٣٦ .

(٤) الدر المصون ٨/٤٢ .

(٥) الكتاب ١/٣٣١ .

وقد ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين من بعده. قال الزجاج[١]: "والله عزّ وجل خاطب العباد بما يعقلون، وقد علم عزّ وجل أنه لا يتذكَّر ولا يخشى، إلا أن الحجَّة إنما تجبُ عليه بالإبانة وإقامتها عليه". وذهب الراغب[٢]إلى ما ذهب إليه سيبويه، وقال: "وقولُه في فرعون ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخشَى﴾ إطماعٌ لموسى عليه السلام مع هارون، ومعناه: فقولا له قولاً ليناً راجيَيْن أن يتذكر أو يَخْشى". وأشار الشوكاني[٣]إلى هذا المعنى فقال: "أي: باشِرا ذلك مباشرةَ مَنْ يرجو ويطمع فالرجاء راجع إليهما".

أما الإمام الطبري فلم يذكر هذا التوجيه لمعنى "لعلَّ"، ويبدو أنه لم يعتمده، وإنما استحسن وصحَّح المعنيين الآخرين في تفسير لعل[٤]وهما:

الأول: أنَّ معناها ها هنا الاستفهام، قال[٥]:كأنهم وَجَّهوا معنى الكلام إلى :﴿فَقُولَا لَهُ قَولا ليّناً﴾ فانظرا: هل يتذكر فيُراجِعَ، أو يَخْشى اللهَ فيرتدعَ عن طغيانه ؟ ثم أوردَ روايةً مأثورة عن ابن عباس رضي الله عنه تؤيد ذلك، وعزا ذلك ابن أبي حاتم إلى ابن عباس[٦]. وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"[٧]إلى ابن المنذر.

ولم يَرْتَضِ صاحب "الدر المصون" هذا القول وذكر أن الاستفهام في حق الله تعالى يستحيل كما يستحيل الترجّي، وقال[٨]: "فإذا كان لا بُدَّ من التأويل فجَعْلُ اللفظ على مدلوله باقياً أَوْلَى من إخراجه عنه".

الثاني: أن معنى "لعلَّ" هنا "كي". قال الطبري[٩]: "ووجَّهوا معنى الكلام إلى: اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فادْعُواه وعِظاه ليتذكر أو يخشى، كما يقول القائل: "اعمَلْ عَمَلَك لعلك تأخذ أجرك" بمعنى

---

(١) معاني القرآن ٣٥٧/٣.
(٢) المفردات ٧٤١.
(٣) فتح القدير ٣٦٦/٣ .
(٤) جامع البيان ٧٥/١٦ .
(٥) جامع البيان ٧٥/١٦.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٢٤٢٤/٧ .
(٧) الدر المنثور ٥٨٠/٥.
(٨) الدر المصون ٤٣/٨.
(٩) جامع البيان ٧٥/١٦ .

لتأخذَ أجرك" وقد ذهب إلى هذا المعنى الأخفش[١]في "معاني القرآن". وقد أثبت هذا المعنى لـ "لعلَّ" ابنُ هشام في "المغني[٢]"، ونسبه إلى الكوفيين ومنهم الكسائي. وبعد أن عرض الطبري لمعنيَيْ الاستفهام والتعليل قال[٣]:"ولكلا هذين القولين وجه حسن ومذهب صحيح".

وتحدَّث سيبويه[٤]عن "أم" المنقطعة، وفرَّق بينها وبين المتصلة، وذكر أنها تأتي بعد الخبر وبعد الاستفهام، ومَثَّل لها بقوله تعالى :﴿ الم * تَنزِيلُ ٱلكِتَٰبِ لَا رَيبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلعالَمِينَ * أَم يَقُولُونَ ٱفتَرَىٰهُ﴾ (السجدة:١-٣) فجاء هذا الكلام على كلام العرب، قد علم تبارك وتعالى ذلك مِنْ قولهم، ولكن هذا على كلام العرب ليُعَرِّفوا ضلالتهم. ومثل ذلك :﴿ قَالَ يَٰقَومِ أَلَيسَ لِي مُلكُ مِصرَ وَهَٰذِهِ ٱلأَنهَٰرُ تَجرِي مِن تَحتِي أَفَلَا تُبصِرُونَ * أَم أَنَا خَير مِّن هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِين ﴾ (الزخرف: ٥١، ٥٢) كأنَّ فرعون قال: "أفلا تُبصرون أم أنتم بصراء. فقوله :﴿ أَم أَنَا خَير مِّن هَٰذَا ﴾ بمنزلة أم أنتم بصراء؛ لأنهم لو قالوا: أنت خير منه، كان بمنزلة قولهم: نحن بُصَراءُ عنده، وكذلك ﴿ أَم أَنَا خَير﴾ بمنزلته لو قال: أم أنتم بُصَراء. ومِثْلُ ذلك قوله تعالى :﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخلُقُ بَنَات وَأَصفَىٰكُم بِٱلبَنِينَ ﴾ ا(لزخرف:١٦) فقد عَلم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون أنَّ الله عزّ وجل لم يتخذ ولداً، ولكنه جاء على حرف الاستفهام، ليُبَصَّروا ضلالتهم. ألا ترى أن الرجل يقول للرجل: آلسعادةُ أحبُّ إليك أم الشقاء؟ وقد عَلم أنَّ السعادةَ أحبُّ إليه من الشقاء، وأن المسؤول سيقول: السعادة، ولكنه أراد أن يُبَصِّر صاحبه وأن يُعْلمه".

يُعَدُّ هذا النص المطول لسيبويه من باب التفسير التحليلي الذي صدر عن عَلَم من أعلام القرن الثاني، وفيه يستشهد بثلاثة مواضع من مواضع "أم" المنقطعة في القرآن الكريم.

وقد اختلف المفسرون في كلام سيبويه على قوله تعالى :﴿ أَم أَنَا خَير﴾ فأبو حيان[٥] عدَّ توجيهه من باب "أم" المتصلة، وكذا ابن هشام[٦] الذي قال: "ووجهُ المعادلة بينها وبين الجملة قبلها أن الأصل: أم تُبْصِرون، ثم أُقيمت الاسمية مقامَ الفعلية والسببُ مقام المسبب؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير

(١) معاني القرآن ٤٠٧ .
(٢) مغني اللبيب ٣٧٩.
(٣) جامع البيان ٧٥/١٦ .
(٤) الكتاب ١٧٢/٣.
(٥) البحر ٢٢/٨.
(٦) مغني اللبيب ٦٥ .

كانوا عنده بصراء، وهذا معنى كلام سيبويه". وقد ساق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة[١] أقوالاً لآخرين منهم السيرافي والدَّماميني تفيد انقطاعها عند سيبويه.

أما الزمخشري[٢] فقرر أولاً اتصالها، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ إلا أنه وضع قوله ﴿ أَم أَنَا خَيرٌ﴾ موضع ﴿ تُبصِرُونَ ﴾؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بصراء. ثم أجاز انقطاعها، والمعنى: بل أأنا خير، والهمزة للتقرير، وذلك أنه قدَّم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم: من مُلك مصر، وجَرْي الأنهار تحته، ونادى بذلك، ومَلأَ به مسامعهم، ثم قال: أنا خير، كأنه يقول: أَثَبَتَ عندكم واستقر أني أنا خير، وهذه حالي.

والحقُّ الذي أراه أنَّ سيبويه قد ساق الآية تحت باب "أم" المنقطعة، وهي ثانيةُ آياتٍ ثلاث ساقها شواهد، ولم يقع خلاف في الأولى والثالثة على كونها منقطعة. وأمَّا آية فرعون — وهي الثانية — فالظاهرُ انقطاعُها وَفْق ضابط معنى الإضراب الذي لا يفارقها، وعدمِ إفادتها ما تفيده المتصلة في أيِّ الأمرين كائن، وهذا هو ظاهر بناءِ الآية ونَظْمها، ولذا حكم عليها أبو عبيدة[٣] والمبرد [٤] بالانقطاع.

وأمَّا كلام سيبويه فيأتي في سياق نَقْلِ حكاية فرعون وما تحتمله من أوجه في تفسيرها. وهذا الذي حمل أبا حيان وابن هشام على تقديرها متصلة.

كما وقف سيبويه على الواو في "وطائفة" من قوله تعالى :﴿ يَغشَىٰ طَآئِفَة مِّنكُم وَطَآئِفَة قَد أَهَمَّتهُم أَنفُسُهُم﴾ (آل عمران: ١٥٤) فقدَّرها واوَ الحال[٥]، وقال في معنى الآية: "يَغْشى طائفةً منكم وطائفةٌ في هذه الحال، كأنه قال: إذ طائفة في هذه الحال، فإنما جَعَله وقتاً، ولم يُرِدْ أن يجعلَها واوَ عطف،

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣٢٠/١ .
(٢) الكشاف ٢٥٨/٤ .
(٣) مجاز القرآن ٢٠٤/٢.
(٤) المقتضب ٢٩٦/٣.
(٥) الكتاب ٩٠/١ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإنما هي واو الابتداء". وقد ذكر هذا التقديرَ ابن عطية في "المحرر[١]"، ونسبه لسيبويه، والشوكاني[٢] وقال: "وجاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال".

ونسب السمين[٣]إلى مكي أنه قدَّرها واو الاستئناف. قال: "وهي التي عبَّر عنها مكي[٤] بواو الابتداء"، كما نقل أبو البقاء[٥] معنى ثالثاً غيرَ واوِ الحال وواو الاستئناف، وهو معنى "إذ"، فصارت معانيها في الآية ثلاثة.

والحقُّ أن مصطلحَي واو الحال وواو الابتداء وكذلك معنى "إذ" ينطبق على شيء واحد[٦]، وليست معاني مختلفة، بدليل قول سيبويه نفسه[٧]: "كأنه قال: إذ طائفة في هذه الحال.... وإنما هي واو الابتداء"، فما ذهب إليه مكي وأبو البقاء لا يَخْرج عن تقدير سيبويه.

وتحدَّث سيبويه[٨]عن معنى الواو في قوله تعالى :﴿ وَٱلبَحرُ يَمُدُّهُ﴾ من قوله: ﴿وَلَو أَنَّمَا فِي ٱلأَرضِ مِن شَجَرَةٍ أَقلَٰم وَٱلبَحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعدِهِۦ سَبعَةُ أَبحُر ﴾ (لقمان:٢٧) فذهب إلى أنها واو الحال، ونظَّر الآيةَ بمثال صناعي لإجلاء المعنى، وهو قوله: "لو ضرَبْتَ عبد الله وزيدٌ قائمٌ ما ضَرَّكَ" أي: لو ضرَبْتَ عبد الله وزيدٌ في هذه الحال، كأنه قال: "ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر هذا أمرُه، ما نَفِدَتْ كلمات الله". فالواو في هذا التقدير حاليةٌ، والجملة حالية. ونظَّر الزمخشري[٩] وقوع الجملة حاليةً في الآية بقول الشاعر[١٠]:

وقد أَغْتدي والطيرُ في وُكُناتها بمنجَرِدٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكلِ

---

(١) المحرر ٢٦٩/٣ .

(٢) فتح القدير ٣٩١/١.

(٣) الدر المصون ٤٤٦/٣ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ١٦٤/١ .

(٥) التبيان ٣٠٣/١ .

(٦) انظر: المغني ٤٧١.

(٧) الكتاب ٩٠/١ .

(٨) الكتاب ١٤٤/٢ .

(٩) الكشاف ٥٠١/٣.

(١٠) البيت لامرئ القيس من معلقته وهو في ديوانه ١٩، وشرح القصائد للأنباري ٨٢. الوكنات: مواضع الطيور. والمنجرد: الفرس القصير الشعر. والأوابد: الوحش وهو قيد لها لأنه يسبقها. والهيكل: الضخم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ونقل صاحب "البحر"[١] أنَّ بعضَهم ذهب إلى أن الواو في قوله :﴿ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ﴾ عاطفة على أنَّ وما في حَيّزها، وأجاز الزمخشري[٢]العطف على محلِّ "أنَّ" ومعمولها على تقدير: ولو ثَبَتَ كونُ الأشجار أقلاماً، وثبت أن البحر ممدود بسبعة أَبْحر. وواضح أن تقديرَ سيبويه أقربُ إلى معنى الآية، وهو تفسير الجمهور لها[٣].

وحاور سيبويه الخليل في اقتران "إذا" الفجائية بجواب "إنْ" الشرطية في قوله تعالى :﴿وَإِن تُصِبهُم سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَت أَيدِيهِم إِذَا هُم يَقنَطُونَ﴾ (الروم:٣٦) فأفاده[٤]بأن هذا كلام مُعَلَّق بالكلام الأول، كما كانت الفاءُ معلقةً بالكلامِ الأول، وهذا هنا في موضع "قَنَطوا" كما كان الجواب بالفاء في موضع الفعل. وممَّا يجعلها بمنزلة الفاء أنها لا تجيء مبتدَأة، كما أنَّ الفاءَ لا تجيء مبتدَأةً ".وقد تَضَمَّن جواب الخليل أن "إذا" الفجائية معادِلَةٌ للفاء في جواب الشرط، واستدل على ذلك بأنَّ الفاء كإذا الفجائية في كونِها لا تأتي أولَ الكلام، كما أنه تأوَّل الجملةَ الاسمية في جواب الشرط ﴿ هُم يَقنَطُونَ ﴾ بالجملة الفعلية الماضية "قنطوا". وهذا ضرب من التفسير اللغوي المبثوث في كتاب سيبويه، والذي أفاد منه المفسرون وأهل اللغة مِنْ بعده.

ووقف سيبويه على "أو" من قوله تعالى :﴿ وَلَا تُطِع مِنهُم ءَاثِمًا أَو كَفُوراً﴾ (الإنسان:٢٤) فقال[٥]: "وإذا أرادوا معنى أنك لست واحداً منهما قالوا: لست عَمْراً ولا بشراً، أو قالوا: "أو بشراً" كما قال:﴿ وَلَا تُطِع مِنهُم ءَاثِمًا أَو كَفُورا﴾ ولو قلت: أو لا تُطِع كفوراً، انقلب المعنى".

وقد أفاد المفسرون من كلام سيبويه في شرح معنى "أو" في الآية فقال الفراء[٦]: "بمعنى لا، وقد يكون في العربية: لا تطيعَنَّ منهم مَنْ أَثِم أو كَفَر، فيكون المعنى في "أو" قريباً من معنى الواو".

---

(١) البحر ١٩١/٧ .
(٢) الكشاف ٥٠١/٣.
(٣) البحر ١٩١/٧ .
(٤) الكتاب ٦٣/٣ .
(٥) الكتاب ١٨٨/٣.
(٦) معاني القرآن ٢١٩/٣ .

وقال السمين[1]: "فإذا نهى فقال: "لا تُكَلِّمْ زيداً أو عَمْراً"، فالتقدير لا تُكَلِّم أحدهما، فأيُّهما كلَّمه كان أحدَهما، فيكون ممنوعاً منه، فكذلك في الآية، ويَؤُول المعنى إلى تقدير: ولا تُطع منهما آثماً ولا كفوراً".

وتحدَّث سيبويه عن كثير من الأدوات التي وردت في القرآن الكريم، فبيَّن معناها من خلال سياقها بإيجاز. ومن ذلك "أنْ" التي بمعنى "أي" التفسيرية في قوله تعالى[2]: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلمَلَأُ مِنهُم أَنِ ٱمشُواْ ﴾ (ص:٦) كما يرى الخليل، وأشار إلى "إنْ" بمعنى "ما" النافية[3] في قوله تعالى :﴿ إِنِ ٱلكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (الملك:٢٠).

وقدَّر زيادة الباء[4] في قوله تعالى :﴿ كَفَى بِٱللَّهِ شَهِيدَا ﴾ (الإسراء:٩٦)، وبيَّن سبب إهمال "ما" النافية[5] في قوله تعالى :﴿ مَآ أَنتُم إِلَّا بَشَر مِّثلُنَا﴾(يس :١٥)، فلم تَقْوَ "ما" عندما نَقَضَتْ معنى ليس. وقدَّر زيادة "ما"[6] في قوله تعالى :﴿فَبِمَا نَقضِهِم مِّيثَٰقَهُم﴾ (النساء:١٥٥)، ومثلُها "ما"[7] في قوله تعالى :﴿مَثَلا مَّا بَعُوضَة﴾ (البقرة:٢٦).

كما قدَّر زيادة "لا"[8] في قوله تعالى :﴿ لِّئَلَّا يَعلَمَ أَهلُ ٱلكِتَٰبِ﴾ (الحديد:٢٩)، وفسَّر "لات"[9] في قوله تعالى :﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاص﴾ (ص:٣) بأنها بمعنى ليس، ولا يُجاوَزُ بها الأزمان.

وذكر العزُّ في كتابه "المجاز"[10] الأداة "على" بأنها من أنواع الحروف المتجوَّز بها، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾ (القلم:٤) فقد شَبَّه التمكن من الهدى والأخلاق العظيمة

---

(١) الدر المصون ٦٢٤/١٠. وانظر: الكشاف ٦٧٥/٤، والمغني ٩١ .
(٢) انظر: الكتاب ١٦٢/٣ .
(٣) انظر: الكتاب ١٥٢/٣ .
(٤) انظر: الكتاب ٤١/١، ٩٢.
(٥) انظر: الكتاب ٥٩/١. انظر: الكتاب ٥٩/١ .
(٦) انظر: الكتاب ١٨٠/١ .
(٧) انظر: الكتاب ٢٨٦/٢ .
(٨) انظر: الكتاب ٣٩٠/١ .
(٩) انظر: الكتاب ٥٨/١ .
(١٠) المجاز ١٥٩ .

والثبوت عليها، بمَنْ علا على دابة يُصَرِّفها كيف يشاء، ثم استشهد بقول سيبويه[1]: "لأنه شيء اعتلاه" فأشار إلى مجاز التشبيه.

لقد فتح سيبويه الباب أمام المفسرين لبيان معنى الأدوات الواردة في كثير من الآيات الكريمة، كما فتح الباب أمام اللغويين في تأثيل معاني كل أداة، واستحضار شواهدها من القرآن الكريم، والسماع العربي الفصيح.

(١) الكتاب ٤/٢٣٠ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث الثاني: بواكير التفسير التحليلي عند سيبويه

سوف نتلمَّس في هذا المبحث نماذج من التفسير التحليلي لدى سيبويه. ونعني بهذا الضرب من التفسير وقوف سيبويه عند بعض الآيات المختارة، وتقليب وَجْهِهِ في معانيها، وتعليله لما يختاره منها. وقد تميَّز هذا المبحث عن المباحث الأخرى بتأنِّي الوقوف والتأمُّل. والحق أننا لسنا نطالبه بأكثر من هذا؛ لأنه صاحبُ تصنيف في النحو والصرف، ولم يتصدَّ للتفسير على نحوٍ قاصد له.

اختلف المفسرون في معنى التشبيه في قوله تعالى :﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنعِقُ بِمَا لَا يَسمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ (البقرة:١٧١)، كما اختلفوا في تقدير المشبه والمشبه به، ووجه الشبه، اختلافاً كثيراً[١].

١-ذهب فريق إلى أن المثل مضروب بتشبيه الكافر بالناعق، والتقدير: ومَثَلُ الذين كفروا في قلَّة فَهْمهم كمثل الرعاة يُكَلِّمون البُهْم، والبُهم لا تعقل شيئاً، فالناعق بغنمه في عَناء، والكافرُ ليس له من دعائه الآلهةَ إلا العَناءُ.

وقد نَقَل الطبريُّ[٢] هذا القول، كما نقله الزمخشري[٣]، وانتقده بأنَّ قولَه ﴿ إِلَّا دُعَآء وَنِدَآء﴾ لا يُساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً.

قال أبو حيان[٤]: "ولحظ الزمخشري في هذا القولِ تمامَ التشبيه من كل جهة، فكما أنَّ المنعوقَ به لا يسمع إلا دعاء ونداء، فكذلك مَدْعُوُّ الكافر من الصنم، والصنم لا يسمع، فضَعُفَ عنده هذا القولُ، ونحن نقول: التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعُوّ".

---

(١) انظر: البحر المحيط ٤٨١/١، الدر المصون ٢٢٩/٢.

(٢) جامع البيان ٤٨/٣.

(٣) الكشاف ٢١٤/١ .

(٤) البحر ٤٨١/١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٢-وذهب فريق ثان إلى أن المثل مضروب بتشبيه الكافر بالمنعوق به، وهو مذهب الفراء[١] وأبي عبيدة[٢]، ونقله الطبري[٣]، وذكر روايات مأثورة تفيده، عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة. قال الفراء: "والمعنى: مثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت... فأضيف التشبيه إلى الراعي والمعني في المَرْعِيّ". وهذا التقدير من القلب.

٣-وذهب آخرون إلى أن المثلَ مضروبٌ بتشبيه داعي الكافرين بالناعق بغنمه، في كون الكافر لا يفهم ممَّا يخاطِب به داعيه إلا دَوِيَّ الصوت دون إلقاءِ فِكْرٍ، كما أنَّ البهيمة كذلك. قال الزمخشري[٤]: "ويجوز أن يُرادَ بـ ﴿ بِمَا لَا يَسمَعُ ﴾ الأصمُّ الأَصْلج الذي لا يَسْمع من كلام الرافع صوتَه بكلامه إلا النداءَ والتصويت لا غير، من غير فَهْمٍ للحروف".

وذهب سيبويه[٥] في قوله: "فيكون في الكلام حذفان: حَذْف من الأول وهو حَذْف داعيهم، وقد أثبت نظيره في الثاني، وحذف من الثاني، وهو حَذْف المنعوق، وقد أثبت نظيره في الأول، فشبَّه داعي الكفار براعي الغنم في مخاطبة مَنْ لا يفهم عنه، وشبَّه الكفارَ بالغنم في كونهم لا يسمعون مِمَّا دُعُوا إليه إلا أصواتاً لا يعرفون ما وراءها".

ورجح الطبري[٦]بأنَّ معنى الآية: وَمَثَلُ وَعْظِ الكافر وواعظه كمثل الناعق بغنمه ونعيقه، فإنه يسمع نعيقه، ولا يعقل كلامه". وقال: "وإنما اخترنا هذا التأويل لأنَّ هذه الآية نزلت في اليهود، ولم تكن اليهود أهلَ أوثان يعبدونها، فلا وجه لتأويلِ مَنْ تَأَوَّل ذلك أنه بمعنى: مثل الذين كفروا في ندائهم الآلهة".

---

(١) معاني القرآن ٩٩/١ .

(٢) مجاز القرآن ٦٣/١ .

(٣) جامع البيان ٤٤/٣ .

(٤) الكشاف ٢١٤/١.

(٥) الكتاب ٢١٢/١.) إلى أنَّ التشبيه جاء على اتساع الكلام والاختصار قال: "فلم يُشَبَّهوا بما يَنْعِق، وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به، وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب المعنى".
وقد فهم المفسرون من اتساع الكلام الذي عناه سيبويه ما أشار إليه السمين (الدر المصون ٢٣١/٢)

(٦) جامع البيان ٥٠/٣ .

واختلف المفسرون في قوله تعالى :﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَي ٱلمَلَكَينِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ... فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَينَ ٱلمَرءِ وَزَوجِهِۦ﴾ البقرة:١٠٢) في عطف قوله :﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا﴾، فذهب سيبويه[١]إلى أنه معطوف على قوله: ﴿ كَفَرُواْ ﴾، الذي هو في موضع رفع خبراً عن ﴿ وَلَٰكِنَّ ﴾ الناسخة؛ فلذلك عُطِف عليه فعل مرفوع. قال: "فارتفعت لأنه لم يُخْبِرْ عن الملَكين أنهما قالا: لا تكفر فيتعلمون؛ ليجعلا كفره سبباً لتعليم غيره، ولكنه على كفروا فيتعلمون".

قال السمين[٢]: "وشَرْحُ ما قاله: هو أنه يريد أنَّ ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ ليس جواباً لقوله ﴿فَلَا تَكفُر﴾ فينتصبَ في جواب النهي؛ لأنَّ كُفْرَ مَنْ نَهَياه أن يكفر ليس سبباً لتعلُّم من يتعلَّم".

وقد اعترض الزجاج[٣] على قول سيبويه بأنه يَلْزَمُ منه الإضمارُ قبل الذكر، وذلك أن الضمير في ﴿ مِنهُمَا ﴾ عائد على الملَكين. وقد قَرَّر سيبويه أنَّ ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا﴾ معطوف على ﴿ كَفَرُواْ ﴾، فيكون التقدير: ولكن الشياطين كفروا فيتعلمون منهما، فيلزمُ الإضمار في ﴿ مِنهُمَا﴾ قبل ذِكْرِ الملَكَيْن.

وهذا الاعتراض واهٍ[٤]؛ لأنهما متقدِّمان لفظاً، وتقديرُ تأخُّرهما لا يَضُرُّ؛ إذ المحذورُ عَوْدُ الضمير على غير مذكور في اللفظ.

والقول الثاني لسيبويه[٥] أنَّ جملة ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فهم يتعلَّمون. ونَظَّره سيبويه بقوله تعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة:١١٧) [٦] وقد ذهب إلى هذا الطبريُّ[٧]، فقدَّر جملة ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ مستأنفة. قال: "خبر مبتدأ عن المتعلِّمين من الملَكَيْن ما أُنزل عليهما، خبر مستأنف. فمعنى الكلام: وما يُعَلِّمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة، فيأبَوْن قَبول ذلك منهما، فيتعلَّمون منهما ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه".

---

(١) الكتاب ٣٨/٣ .

(٢) الدر المصون ٣٩/٢ .

(٣) معاني القرآن ١٨٥/١ .

(٤) انظر: الإغفال ٣٧٣/١، البحر ٣٣١/١ .

(٥) الكتاب ٣٩/٣ .

(٦) انظر: فتح القدير ١٢٠/١ .

(٧) جامع البيان ٣٥٧/٢ .

وذهب الفراء[١]أنَّ جملة ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحرَ ﴾، أي: يُعَلِّمون الناس فيتعلَّمون. وأجاز الفارسيُّ[٢]هذا العطفَ، وإن كان التعليم من الملَكين خاصةً، والضمير في ﴿ مِنهُمَا ﴾ راجع إليهما؛ لأن قوله ﴿مِنهُمَا﴾ جاء بعد تقدُّم ذِكْر الملَكين.

وذهب الزجاج[٣] أنَّ جملة ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾، والضمير في ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ عائد على ﴿أَحَدٍ﴾، وجُمع حَمْلاً على المعنى، وقوله ﴿ومَا يُعَلِّمَانِ﴾ مَنْفِيٌّ لفظاً، موجَبٌ معنى. وثمة أقوال أخرى في العطف[٤].

وفي قوله تعالى :﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤتِيَهُ ٱللهُ ٱلكِتَٰبَ وَٱلحُكمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادا لِّي مِن دُونِ ٱللهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّنَ بِمَا كُنتُم تُعَلِّمُونَ ٱلكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُم تَدرُسُونَ * وَلَا يَأمُرَكُم أَن تَتَّخِذُواْ ٱلمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّنَ أَربَابًا﴾ (آل عمران: ٧٩، ٨٠). اختلف المفسرون في عطف الفعل ﴿وَلَا يَأمُرَكُم أَن تَتَّخِذُواْ﴾، فذهب سيبويه[٥] إلى أنه معطوف على الفعل ﴿ يُؤتِيَهُ ﴾، والمعنى: "وما كان لبشر أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً".

وذهب الطبريُّ[٦] إلى أنه معطوف على قوله ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ﴾، قال: "بتأوُّل: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً؛ لأن الآية نزلتْ في سبب القوم الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريد أن نعبدك؟ فأخبرهم الله أنه ليس لنبيّه صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ الناس إلى عبادة نفسه، ولا إلى اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، ولكن الذي له: أن يدعوَهم إلى أن يكونوا ربانيين".

---

(١) معاني القرآن ٦٤/١ .
(٢) الإغفال ٣٧٦/١.
(٣) معاني القرآن ١٨٥/١ .
(٤) انظر: البحر ٣٣٢/١.
(٥) الكتاب ٥٢/٣ .
(٦) جامع البيان ٥٣٤/٥ .

وبيَّن الشوكاني[١] تقدير الطبري بقوله: "أي ليس له أن يأمر بعبادة نفسه، ولا يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، بل ينتهي عنه".

وقد اعترض ابن عطية[٢] على ما قاله الطبري، وقال: "هذا خطأ لا يلتئم به المعنى"، ولكنه لم يُبَيِّن وجه الخطأ الذي يؤدِّي إلى عدم التئام المعنى به.

وحاول أبو حيان[٣] أن يبين ذلك: بأن الخطأ ينجم عن تقدير (لا) على سبيل تأسيس النفي لا تأكيدِه، وتقدير (أن) قبل (لا) النافية.

وانتصر الزمخشري[٤] لمذهب الطبريّ سواء قدَّرْنا النفي للتأسيس أو للتأكيد. أما الضمير في ﴿يَأْمُرَكُم﴾[٥] فيعود على الله، أو يعود على البشر الموصوف بما تَقَدَّم، إن قدَّرنا الفعل معطوفاً على ﴿يُؤتِيَهُ﴾. وأمَّا إذا جعلناه معطوفاً على ﴿ يَقُولَ﴾ فالضمير يعود ﴿ لِبَشَرٍ ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾(الجن:١٨) اختلف المفسرون في تقدير معنى المصدر المؤول ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، فنقل سيبويه[٦] عن الخليل أن المعنى: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، فحذف حرف الجر، والمصدر المؤول منصوب على نزع الخافض، والجارُّ في الأصل متعلق بقوله ﴿ فَلَا تَدۡعُواْ ﴾.

وذهب الطبري[٧] إلى أن هذا المصدر ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ معطوف على المصدر المتقدم ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ أي: وأوحي إليَّ أن المساجد لله فلا تدعوا أيها الناس مع الله أحداً، ولكن أَفْرِدُوا له التوحيدَ".

---

(١) فتح القدير ١/٣٥٥ .
(٢) المحرر الوجيز ٣/١٤٢.
(٣) البحر ٢/٥٠٧ .
(٤) الكشاف ١/٣٧٨.
(٥) انظر: الدر المصون ٣/٢٨٢ .
(٦) الكتاب ٣/١٢٧ .
(٧) جامع البيان ٢٣/٣٤٠.

وفي قوله تعالى :﴿أَن تَضِلَّ إِحداهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحداهُمَا ٱلأُخرَى﴾ (البقرة:٢٨٢) يبرز إشكال في فَهْمِ معنى الآية، وهو: كيف جُعِلَ ضَلالُ إحداهما علة لِتَطَلُّبِ الإشهاد؟[١]

وقد أجاب سيبويه [٢] جواباً محكماً عن هذا الالتباس فقال: "فانتصب، لأنه أَمَرَ بالإشهاد؛ لأَنْ تُذَكِّرِ إحداهما الأخرى، ومن أجل أن تُذكِّر".

وقال: "فإن قال إنسان: كيف جاز أن تقول: أن تضل، ولم يُعَدَّ هذا للضلال وللالتباس، فإنما ذكر (أن تضل) لأنه سبب الإذكار، كما يقول الرجل: أعددتُه أن يميل الحائط فأدعمَه، وهو لا يَطْلُب بإعدادِ ذلك ميلان الحائط، ولكنه أخبر بعلة الدعم وبسببه". فهو بهذا الأسلوب الحواري يقرر معنى الآية، ثم يصوغ سؤالاً على سبيل الاعتراض، ويجيب عنه.

أما الطبري[٣] فقد اعتمد مذهب الفراء[٤] في معنى الآية، فقال: "إن الأصل: كي تذكِّر إحداهما الأخرى إنْ ضَلَّت، وهو عندهم من المقدَّم الذي معناه التأخير؛ لأنَّ التذكير عندهم هو الذي يجب أن يكون مكان (تضلَّ) كما تقول في الكلام: إنه ليعجبني أن يسأل السائل فيُعطى، بمعنى: إنه ليعجبني أن يعطى السائلُ إن سأَلَ، ولكنَّ قوله "إن سأل" لما تقدَّم اتصل بما قبله ففتح (أن) ونصب بها".

ورد الزجَّاج[٥] والفارسيُّ[٦] هذا التقدير بردودٍ مطولة؛ لأن الحرف العامل لا يتغيَّر عملُه بالتقديم والتأخير.

وفسَّر سيبويه بعض الآيات تفسيراً إجمالياً، ومن ذلك قوله[٧]في تفسير قوله تعالى :﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَم أَهلَكنَا قَبلَهُم مِّنَ ٱلقُرُونِ أَنَّهُم إِلَيهِم لَا يَرجِعُونَ﴾ (يس:٣١) قال: "فالمعنى – والله أعلم – ألم يروا أنَّ القرون الذين أهلكناهم إليهم لا يرجعون".

---

(١) انظر: الدر المصون ٢/٦٦٠ .
(٢) الكتاب ٣/٥٣.
(٣) جامع البيان ٥/٨٨ .
(٤) معاني القرآن ١/١٨٤ .
(٥) معاني القرآن ١/٣٦٤.
(٦) الحجة ٢/٤٣٣.
(٧) الكتاب ٣/١٣٢ .

وقال[1] في قوله تعالى :﴿ أَيَعِدُكُم أَنَّكُم إِذَا مِتُّم وَكُنتُم تُرَابا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخرَجُونَ﴾ (المؤمنون:٣٥) "جاء مبدلاً، فكأنه على أيعدكم أنكم مخرجون إذا متُّم، وذلك أريد بها، ولكنه إنما قُدِّمت (أنَّ) الأولى ليُعْلَم بعد أيِّ شيءٍ الإخراج"[2].

وينجم عن تقدير البدلية عند سيبويه أن خبر (أنَّ) الأولى محذوف لدلالة خبر الثانية عليه، تقديره: أنكم تبعثون، والثانية وما في حيزها بدل من الأولى[3].

والطبريُّ[4] في الآية لم يقدِّر التقديم الذي لحظه سيبويه من الإبدال، وأبقى النظم على أصله، وقال: "والمعنى أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً مخرجون، وكرَّر (أنَّ) مع اسمِها لوقوع الاعتراض بين الاسم والخبر بالجزاء، فتكرار (أنَّ) الثانية على هذا توكيد للأولى لمَّا طال الفصل"، وهو الذي مال إليه الفراء[5].

(١) الكتاب ١٣٢/٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للنحاس ٤٥٥/٤ .

(٣) انظر: الدر المصون ٣٣٤/٨ .

(٤) جامع البيان ٤١/١٧ .

(٥) معاني القرآن ٢٣٤/٢ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث الثالث: التفسير بتقدير المحذوف عند سيبويه

يرقى التنزيل الحكيم إلى أعلى درجات البلاغة، وباب الحذف باب ثرٌّ من أبواب البلاغة القرآنية، وقد تحدث المفسرون والبلاغيون عن مواضع الحذف في أسلوب القرآن، وحرصوا على بيان ما حُذِفَ من النظم، وَفْق منطوق العربية التي نزل القرآن بلسانها. وقد شارك سيبويه المفسرين في هذا البيان، وله في هذا وقفات متأنية، وليس هذا بمستغرب؛ لأن هذا هو ميدان علماء العربية في هذا الضرب من التفسير.

وقد أفادت كتب التفسير من تقديراته، وكثيراً ما نَسَبَتْ إليه ما كان يقدِّره من مواضع الحذف وتأويل الكلام.

اختلف المفسرون في تقدير قوله تعالى :﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجلِدُواْ كُلَّ وَٰحِد مِّنهُمَا مِاْئَةَ جَلدَة﴾ (النور:٢)، فذهب سيبويه[١] إلى أن معنى الآية: "فيما يتلى عليكم: حكم الزانية..."، فقوله :﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ مبتدأ، خبره متعلَّق الجار والمجرور المتقدم، أي: فيما يُتْلى عليكم حُكمُ الزانية والزاني، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿ فَٱجلِدُواْ كُلَّ وَٰحِد مِّنهُمَا مِاْئَةَ جَلدَة ﴾.

قال سيبويه[٢]: كأنه لمَّا قال جلَّ ثناؤه ﴿سُورَةٌ أَنزَلنَٰهَا وَفَرَضنَٰهَا﴾ (النور:١) قال: في الفرائض الزانية والزاني، أو الزانية والزاني في الفرائض، ثم قال :﴿ فَٱجلِدُواْ ﴾، فجاء بالفعل بعد أن مضى فيهما الرفع، كما قال[٣]:

وقائلةٍ خَوْلانُ فانكِحْ فتاتَهُمْ وأُكرومةُ الحَيَّيْنِ خِلْوٌ كما هيا

فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمر".

---

(١) الكتاب ١/١٤٣ .

(٢) الكتاب ١/١٤٣.

(٣) لا يعرف قائله، وهو في البحر ٣/٤٧٧. والأكرومة: الكريمة وهي كريمة الأب والأم. والخلو: الخالية من الزوج .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وذهب الطبري[١] إلى أنَّ في الآية معنى الشرط، ففسَّر الآية بقوله: "مَنْ زنى من الرجال، أو زَنَتْ من النساء، فاجلدوه ضرباً مئة جلدة، فدخلت الفاء في الخبر لشِبْه المبتدأ بالشرط. وهذا تفسير الفراء في "معاني القرآن[٢]"، والمبرد[٣].

أما الأخفش فمذهبه في المسألة[٤]: أن الاسم الموصول (الذي) إذا كان مبتدأ جاز أن تكون الجملة بعده خبرَه، نحو :﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ (النساء:١٦)، وعلَّل ذلك بأن (الذي) إذا كانت صلته فعلاً جاز أن يكون خبره بالفاء، وأما قوله تعالى :﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ ﴾ (النور:٢) فلا يجوز فيه ذلك، وأخذ بقول سيبويه. قال: "ليس في قوله ﴿ فَٱجۡلِدُواْ ﴾ خبر مبتدأ؛ لأنَّ خبر المبتدأ هكذا لا يكون بالفاء، لو قلت: عبد الله فينطلق" لم يَحْسُن، وإنما الخبر هو المضمر الذي فَسَّرْتُ لك من قوله: "ومما نَقُصُّ عليكم، كما تقول: "الهلالُ فانظُرْ إليه"، كأنك قلت: هذا الهلالُ فانظر إليه، فأضمر الاسم".

أمَّا القرطبي[٥] فقدَّر معنى الآية: الزانية والزاني مَجْلُودَان بحكم الله، أو ينبغي أن يُجْلَدا. وبناءً على هذا لم يُقَدِّر جارّاً ومجروراً متقدماً، كما قدَّرَه سيبويه، ولم يقدِّر كذلك معنى الشرط كما قدَّره الطبري. ويأتي تقدير القرطبي على تقدير زيادة الفاء في قوله: ﴿ فَٱجۡلِدُواْ ﴾.

وتجري المذاهب السابقة في تفسير قوله تعالى :﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ (المائدة:٣٨) [٦]، وفي تفسير قوله تعالى :﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ (النساء:١٦) [٧].

ولم يرتض الفخر الرازي[٨] تقدير سيبويه في آية السارق، ورَدَّه بوجوه منها: أَنَّا إذا جَعَلْنا السارق مبتدأ، وخبره مضمر، وهو الذي يقدِّره: فيما يُتْلَى عليكم، بقي شيءٌ آخرُ تتعلَّق به الفاء في

---

(١) جامع البيان ١٣٩/١٧ .
(٢) معاني القرآن ٢٤٤/٢ .
(٣) انظر: تفسير القرطبي ٤٥٥٢/٣ .
(٤) معاني القرآن ٨٠/١.
(٥) تفسير القرطبي ٤٥٥٢/٧.
(٦) انظر: الكتاب ١٤٢/١ .
(٧) اعتمد النحاس قول سيبويه في معاني القرآن ٣٠٤/٢.
(٨) تفسير الفخر الرازي ٢٢٣/١١ .

قوله ﴿فَٱقطَعُوا﴾ .فإن قال: الفاء تتعلق بالفعل الذي دل عليه قوله :﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾، يعني أنه إذا أتى بالسَّرقة فاقطعوا يدَه. فنقول: إذا احتجتَ في آخر الأمر أن تقولَ: السارق والسارقة تقديره: مَنْ سرق، فاذكر هذا أولاً حتى لا تحتاج إلى الإضْمارِ الذي ذَكرْته.

وحَملَ سيبويه[1] على مذهبه من هذا التفسير قولَه تعالى :﴿ مَّثَلُ ٱلجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيرِ ءَاسِنٍ﴾ (سورة محمد صلى الله عليه وسلم:١٥) قال: "فإنما وُضِعَ المَثَلُ للحديث الذي بعده، فذَكَرَ أخباراً وأحاديث فكأنه قال: ومن القصص مثلُ الجنة، أو ممَّا يُقَصُّ عليكم مثلُ الجنة، فهو محمول على هذا الإضمار ونحوه".

وبناء على هذا فإنَّ قوله ﴿ مَّثَلُ ﴾ مبتدأ، خبره مقدَّر قبلَه، أي: ممَّا يُقَصُّ عليكم، وجملة ﴿فِيهَآ أَنهَٰرٌ﴾ تفسيرية للمثل. وقريبٌ من هذا تفسير النضر بن شميل للآية[2] ؛ لأنَّ التقدير عنده: مَثَل الجنة ما تسمعون.

وذهب الطبري[3]إلى أنَّ ﴿ مَّثَلُ ﴾ في الآية بمعنى الصفة، وفسَّر الآية بقوله: صفة الجنة التي وُعِدَها المتقون، وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه، ثم يأتي الخبر ﴿ كَمَن هُوَ خَٰلِد فِي ٱلنَّارِ ﴾.

أما ابنُ عطية[4]فقدَّر أول الكلام حرف الإنكار ومضافاً أي: أمثلُ أهل الجنة كمَنْ هو خالد؟ وقدَّر الزمخشري[5] مضافاً في الخبر، أي: أمثلُ الجنةِ كمثل جزاءِ مَنْ هو خالد؟ ولا يصلح أن تكون جملة ﴿ فِيهَآ أَنهَٰرٌ ﴾ خبراً؛ إذ لا عائد من الجملة إلى المبتدأ.

واختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى :﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَد جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلحَقِّ مِن رَّبِّكُم فَـَٔامِنُواْ خَيرا لَّكُم﴾ (النساء:١٧٠)، وبناء على اختلافهم في التفسير اختلفوا في إعراب ﴿ خَيرا ﴾؛

---

(١) الكتاب ١٤٣/١.
(٢) انظر: الدر المصون ٦٩٠/٩ .
(٣) جامع البيان ٢٠٠/٢١ .
(٤) المحرر الوجيز ٦٠/١٥ .
(٥) الكشاف ٣٢١/٤ .

وذلك لأن الإعراب تبع للمعنى، فذهب الخليل وسيبويه[١]إلى أن هذا مِمَّا ينتصِبُ على إضمار الفعل المتروكِ إظهارُه، وتقديره: وأْتُوا خيراً لكم، فقد حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولِعِلْم المخاطب أنه محمول على أمر حين قال له انْتَهِ، فصار بدلاً من قوله: "ائت خيراً لك، وادْخُلْ فيما هو خيرٌ لك". واستشهد على ذلك بقول الشاعر[٢]:

فواعِدِيه سَرْحَتَيْ مالكٍ أو الرُّبا بينهما أسهلا

وقد اختار هذا التفسير الزمخشري[٣]، وقال في تفسير الآية: "وذلك أنه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث، عُلِمَ أنه يحملهم على أمر، فقال: خيراً لكم أي اقصدوا، أو ائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث".

وبهذا الوجه بدأ ابن عطية[٤]والقرطبي[٥]، وذهب أبو عبيدة[٦]والكسائي[٧]إلى أن المعنى: انتهوا يكن الإيمان خيراً لهم، واختاره ابن كثير[٨] والشوكاني[٩]. وقد ردَّ بعضهم هذا المذهب[١٠] بأنَّ "كان" لا تحذف مع اسمها على هذه الصورة.

وذهب الفراء[١١]إلى أن تقدير المعنى: فآمنوا إيماناً خيراً لكم، فهو نعت لمصدر محذوف. ونقل القرطبي[١٢] تخطئة ذلك؛ لأنه يكون المعنى: انتهوا الانتهاء الذي هو خير لكم.

---

(١) الكتاب ٢٨٢/١.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ٣٤١. والمعنى: أن محبوبة الشاعر قالت لمرافقتها: واعدِيه أن يقصد ذاك المكان، وليأت أسهل الأمرين له.

(٣) الكشاف ٥٩٣/١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣١٥/٤ .

(٥) تفسير القرطبي ٢٠٢١/٣ .

(٦) مجاز القرآن ١٤٣/١.

(٧) الدر المصون ١٦٤/٤ .

(٨) تفسير القرآن العظيم ٧٧٤/١ .

(٩) فتح القدير ٦٣٣/١ .

(١٠) انظر: الدر المصون ١٦٤/٤ .

(١١) معاني القرآن ٢٩٥/١ .

(١٢) تفسير القرطبي ٢٠٢١/٣.

أما الطبري[1] فقد نقل مذهب سيبويه المتقدم، ولكنه نسبه إلى بعض نحويي البصرة، ثم فسَّر الآية تفسير معنى، ولم يلتفت إلى الجانب الصناعي، فقال: "أيها القائلون: الله ثالث ثلاثة، انتهوا عمَّا تقولون من الزُّور والشرك بالله؛ فإن الانتهاءَ عن ذلك خيرٌ لكم مِنْ قِيلِه".

وكان سيبويه يُعْنى بتقدير المحذوف، ومن ذلك تقديره المفعول الأول المحذوف في قوله تعالى :﴿وَلَا يَحسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضلِهِۦ هُوَ خَيراً لَّهُم﴾ (آل عمران:١٨٠)، قال[2]: "كأنه قال: ولا يحسبن الذين يبخلون البخل هو خيراً لهم، ولم يذكر البخل؛ اجتزاءً بعلم المخاطب بأنه البخل لذِكْره (يبخلون)".

ومن ذلك: تقديرُه اسم "أن" المخففة من الثقيلة في قوله تعالى: "والخامسةُ أن غَضَبُ الله عليها"(النور:٩)، قال[3]: "فكأنه قال: أَنَّه غَضَبُ الله عليها".

كما قدَّر المبتدأ المحذوف في قوله تعالى :﴿ فَصَبر جَمِيل﴾ (يوسف:٨٣): "كأنه يقول: الأمر صبر جميل"[4].

كما قدَّر الفعل المحذوف في قراءة: ﴿وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قَتْلُ أولادِهم شركاؤُهم﴾[5]. (الأنعام:١٣٧) بقوله[6]:"أي: زيَّنه شركاؤهم".

وقدَّر[7]الفعل المحذوف في قوله :﴿ بَل مِلَّةَ إِبرَٰهِيمَ حَنِيفا﴾ (البقرة:١٣٥) بقوله: "أي: بل نَتَّبع".

---

(١) جامع البيان ٦٩٩/٧ .

(٢) الكتاب ٣٩١/٢ .

(٣) الكتاب ١٦٣/٣، وهي قراءة يعقوب والحسن. انظر: غاية الاختصار ٥٨٧، النشر ٣٣٠/٢، الإتحاف ٢٩٣/٢ .

(٤) الكتاب ٣٢١/١ .

(٥) وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي والحسن. انظر: البحر ٢٢٩/٤ .

(٦) الكتاب ٢٩٠/١.

(٧) الكتاب ٢٥٧/٣ .

كما قدَّر[1] الفعل المحذوف من قوله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَولِيَآء مَا نَعبُدُهُم﴾ (الزمر:٣) أي: قالوا: ما نعبدهم. وقدَّر "يا"[2] قبل قوله ﴿ فَاطِرَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ﴾ (الزمر:٤٦). وقدَّر[3] علامة الإضمار مِنْ قوله تعالى :﴿ وَكُلٌّ أَتَوهُ دَٰخِرِينَ ﴾ (النمل:٨٧)، فالأصل: وكلُّهم أَتَوه.

وقدَّر "في"[4]بين المتضايفَيْن من قوله تعالى: ﴿بَل مَكرُ ٱلَّيلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ (سبأ:٣٣). وقدَّر المحذوف "فيه"[5] في قوله تعالى :﴿ وَٱتَّقُواْ يَوما لَّا تَجزِي نَفسٌ عَن نَّفس﴾ (البقرة:٤٨)، والأصل: لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ فيه.

وأضمر[6]المبتدأ "ذاك" من قوله تعالى :﴿ كَأَنَّهُم يَومَ يَرَونَ مَا يُوعَدُونَ لَم يَلبَثُواْ إِلَّا سَاعَة مِّن نَّهَارِ بَلَٰغ﴾ (الأحقاف:٣٥)، كأنه قال: "ذاك بلاغ".

وقدَّر[7]الفعل المحذوف: "بلى نجمعها" من قوله تعالى :﴿بَلَى قَٰدِرِينَ﴾ (القيامة:٤). كما قدَّر[8] الفعل المحذوف في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (سورة محمد صلى الله عليه وسلم:٤) بقوله: "فإما تَمُنُّونَ منّاً وإما تُفادون فداء". وقدَّر[9]المضاف المحذوف في قوله :﴿ وَسئلِ ٱلقَريَةَ﴾ (يوسف:٨٢) أي: أهل القرية.

وقدَّر[10]المضاف المحذوف في قوله :﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلبِرَّ مَن ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾(البقرة:١٧٧)، أي: بِرُّ من آمن.

---

(١) الكتاب ١٤٣/٣ .
(٢) الكتاب ١٩٦/٢. وانظر: معاني القرآن للنحاس ١١١/٢ .
(٣) الكتاب ١٧٩/٢ .
(٤) الكتاب ١٧٦/١.
(٥) الكتاب ٣٨٦/١ .
(٦) الكتاب ٣٨٢/١ .
(٧) الكتاب ٣٤٦/١ .
(٨) الكتاب ٣٣٦/١ .
(٩) الكتاب ٢١٢/١.
(١٠) الكتاب ٢١٢/١ .

وقدَّر المحذوف من قوله تعالى :﴿طَاعَة وَقَول مَّعرُوف﴾ (سورة محمد صلى الله عليه وسلم:٢١) قال[١]: "فإمَّا أن يكون أضمر الاسم، وجَعَلَ هذا خبرَه، كأنه قال: أَمْري طاعة وقولٌ معروف، أو يكون أضمر الخبر فقال: طاعة وقول معروف أمثل".

وقدَّر المبتدأ المحذوف من قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكُم وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيدِ ٱلكَٰفِرِينَ﴾ (الأنفال:١٨)، قال[٢]: "كأنه قال: الأمر ذلك، وأنَّ الله".

كما قَدَّر المبتدأ المحذوف من قوله تعالى :﴿بِئسَمَا ٱشتَرَوا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُم أَن يَكفُرُوا۟﴾ (البقرة:٩٠)، فقال[٣]: "كأنه قيل له ما هو ؟ فقال: هو أن يكفروا".

وقد ذكر الطبري[٤]هذا القول، ونسبه إلى بعض نحويي البصرة. وقدَّر المبتدأ المحذوف في قوله تعالى :﴿وَإِن مِّن أَهلِ ٱلكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤمِنَنَّ بِهِۦ قَبلَ مَوتِهِۦ﴾ (النساء:١٥٩)، بقوله[٥]: "أحد". وذكر الطبري[٦]هذا التقدير ضمن الأقوال المتعددة في تفسير الآية.

لقد أفاد المفسرون من تقدير سيبويه لهذه الآيات، وما هذا التقدير إلا وسيلة لإصابة المعنى المنشود.

---

(١) الكتاب ١/١٤١ .

(٢) الكتاب ٣/١٢٥ .

(٣) الكتاب ٣/١٥٥.

(٤) جامع البيان ٢/٢٤٣ .

(٥) الكتاب ٢/٣٤٥ .

(٦) جامع البيان ٧/٦٧٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث الرابع: تفسير سيبويه الآيات المشكلة

لا يخفى على أحد أن لغة القرآن تمثل اللغة الفصيحة العالية، بيد أن ثمة مواضع منها جاء ظاهرها مشكلاً على قواعد العربية، وضوابطها التي استقاها أهل الفن من أنواع السماع العربي الفصيح، ومن هنا حرص المفسرون وأهل اللغة على إجلاء ما يلتبس من الآيات، وبيان وجهته ونسبته إلى الصحة. ولعل سيبويه من أوائل مَنْ أرسَوْا قواعد حلِّ مُشكل القرآن، وقدَّم في كتابه نماذج متعددة أفاد منها العلماء في تحرير مصنفاتهم التي توالَتْ من بعده، وقاسوا النظير على النظير.

ومن ذلك عَودُ الضمير في ﴿ بُطُونِهِۦ ﴾ من قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ لَكُم فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ (النحل:٦٦)، فقال[١]: وأما "أفعال" فقد يقع للواحد، من العرب من يقول: "هو الأنعام"، وقال أبو الخطاب[٢]: سمعت العرب يقولون: هذا ثوب أكياش[٣]وقد أخذ بهذا التوجيه الفراء[٤]، وصَحَّحَه الطبري[٥].

ومن ذلك نَصْب ﴿ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ورفع ﴿ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ من قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء:١٦٢)، فقدَّر[٦]نصب ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾ على التعظيم والمدح، وقدَّر رفع ﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ﴾ على الابتداء.

وقد أخذ بهذا التوجيه طائفة من المفسرين من بعده[٧]، وإن كان الإمام الطبري[٨] قدَّر ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾ معطوفاً على قوله ﴿وَمَآ﴾ من قوله ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ ووَجَّه معنى ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ

---

(١) الكتاب ٢٣٠/٣ .

(٢) أبو الخطاب هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد، كان إماماً في العربية، أخذ عنه سيبويه والكسائي، وتوفي سنة ١٧٧. انظر: طبقات النحويين ٤٠، إنباه الرواة ١٥٧/٢، البغية ٧٤/٢.

(٣) الأكياش: ضرب من برود اليمن .

(٤) معاني القرآن ١٢٩/١، ١٠٨/٢ .

(٥) جامع البيان ٢٧٤/١٤ .

(٦) الكتاب ٦٣/٢. وانظر في الموضع نفسه تقديره للآية ١٧٧ من البقرة.

(٧) انظر: معاني القرآن للنحاس ٢٣٨/٢ .

(٨) جامع البيان ٦٨٣/٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى الملائكة، والمعنى: والمؤمنون منهم يؤمنون بما أنزل إليك يا محمد من الكتب، وبما أُنزل من قبلك من كتبي، وبالملائكة الذين يقيمون الصلاة. ومثل هذا التوجيه ذكره ابن قتيبة[١].

ومن ذلك وصف النكرة ﴿ هَديَا ﴾ (المائدة:٩٥) بقوله ﴿ بَٰلِغَ ٱلكَعبَةِ ﴾؛ وذلك لأنَّ بالغ الكعبة في معنى النكرة والتنوين[٢]، والإضافة فيه غير محضة؛ لأنه جاء وصفاً على فاعِل.

ومن ذلك رَفْعُ ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ بعد أسماء منصوبة في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ (المائدة:٦٩)، فخرَّجه سيبويه[٣]على أنه مبتدأ، وخبره محذوف؛ لدلالة خبر الأول عليه، والنية به التأخير، والتقدير: إن الذين هادوا مَنْ آمن منهم والصابئون كذلك. واستشهد على ذلك بقول الشاعر[٤]:

وإلا فاعلموا أنَّا وأنتمْ بُغاةٌ ما بَقِينا في شِقاق

وقد عطفه ابن قتيبة[٥]على موضع :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فموضعه رفع.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٥٣ .

(٢) انظر: الكتاب ١٦٦/١ .

(٣) الكتاب ١٥٥/٢.

(٤) الكتاب ١٥٥/٢ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ٥٢ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وخرَّج[1]قوله تعالى :﴿حَمَّالَةَ﴾ بالنصب من قوله :﴿ وَٱمرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلحَطَبِ﴾ (المسد:٤) مفعولاً به على الذم والشتم، وإن كان فعلاً لا يُستعمل إظهارُه، وذلك كقول الشاعر[2]:

طَـليقُ الله لم يَـمْنُنْ عليـه أبـو داودَ وابنُ أبي كـثيرِ

ولا الحجَّاج عينَيْ بنتِ ماء تُقَلِّب طَرْفَها حَذَرَ الصُّقُورِ

واستشكل سيبويه بعض الآيات التي يُنزل فيها غيرُ العاقل منزلَةَ العاقل، وهي :﴿كُلّ فِي فَلَك يَسبَحُونَ﴾(الأنبياء:٣٣)، ﴿رَأَيتُهُم لِي سَٰجِدِينَ﴾(يوسف:٤)، ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلنَّملُ ٱدخُلُواْ مَسَٰكِنَكُم﴾ (النمل:١٨)، فسأل أستاذه الخليل عنها، فأجاب[3]: بأنه بمنزلة ما يعقل ويسمع، لما ذكرهم بالسجود، وصار النمل بتلك المنزلة حين حَدَّثْت عنه كما تُحَدِّث عن الأناسيّ، وكذلك ﴿ فِي فَلَك يَسبَحُونَ ﴾ لأنها جُعِلَت في طاعتها، وفي أنه لا ينبغي لأحد أن يقول: "مُطِرنا بِنَوْء كذا"، ولا ينبغي لأحد أن يعبد شيئاً منها، بمنزلة مَنْ يعقل من المخلوقين ويُبْصِرُ الأمور.

واختلف المفسرون في توجيه قوله تعالى:﴿يَطُوفُ عَلَيهِم وِلدَٰن مُّخَلَّدُونَ * بِأَكوَاب وَأَبَارِيقَ وَكَأس مِّن مَّعِين * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَة مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحمِ طَير مِّمَّا يَشتَهُونَ* وَحُورٌ عِين﴾ (الواقعة:١٧-٢٢) في عطف ﴿وَحُورٌ﴾ المرفوع:

فذهب سيبويه[4]إلى أن العطف مقدر على المعنى، ويعنون به أن العطف لا يجري على لفظ سابق، وإنما هو مقدَّر على معنى ما يتقدم بتأويل، قال: "ولما كان المعنى في الحديث على قوله: (لهم فيها)، حَمَلَه على شيء لا ينقض الأول في المعنى". ثم استشهد بطائفة من الشواهد الشعرية يجري فيها العطف على المعنى، نحو[5]:

---

(١) الكتاب ٢/٧٠ .

(٢) البيتان لإمام بن أقرم النميري، وهما في البيان والتبيين ١/٣٨٦. والشاهد قوله «عيني» منصوب على الذم؛ شبَّه عيني الحجاج بعيني بنت الماء.

(٣) الكتاب ٢/٤٧ .

(٤) الكتاب ١/١٧٢.

(٥) البيت لمزاحم العقيلي، وهو في الكتاب ١/١٧٢، واللسان (مصع). الخميس: الجيش. النجاد: ج نجد، وهو الطريق. والمصاع: المجالدة بالسيف. والرُّغُب: الواسعة. عطف المرفوع «ضربة» على المصدر المنصوب "المصاع"

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يَهْدي الخميسَ نِجاداً في مطالعها إمَّا المصاعَ وإما ضَرْبَةٌ رُغُبُ

وذهب طائفة من العلماء إلى ما ذهب إليه سيبويه كالطبري[١]، وقدَّر قوله :﴿وَحُورٌ﴾ على الابتداء، ورفعُه على معنى: وعندَهم حورٌ، أو لهم حور. أمَّا أبو حيان[٢] فقدَّر العطف بالمعنى بقوله: "هذا كله وحورٌ عين"، وقدَّر الزمخشري[٣]: "وفيها حور".

أما أبو البقاء العكبري[٤]فقدَّر قوله :﴿وَحُورٌ﴾ معطوفاً على قوله ﴿وِلدَان﴾ وقال: "يَطُفْنَ عليهم للتنعُّم لا للخدمة". قال السمين[٥]: "أي: إنَّ الحور يَطُفْنَ عليهم بذلك، كما الولائد في الدنيا" وقال: "وهو للخدمة أبلغ؛ لأنه إذا خَدَمَهُم مثل أولئك فما الظنُّ بالموطوءات؟". كما أجاز أبو البقاء[٦]أن يكون قوله :﴿ وَحُورٌ ﴾ خبراً لمبتدأ مضمر، أي: نساؤهم.

(١) جامع البيان ٣٠٢/٢٢ .

(٢) البحر ٢٠٦/٨ .

(٣) الكشاف ٤٦٠/٤ .

(٤) التبيان ٢٥٤/٢ .

(٥) الدر المصون ٢٠٣/١٠.

(٦) التبيان ٢٥٤/٢ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث الخامس: توجيه القراءات عند سيبويه

عني المفسرون بتوجيه القراءات، وكان لهم فيه ضربان من التصنيف، أحدهما: أن يذكر المفسر توجيه ما يذكره من القراءات، من خلال علوم التفسير التي ينثرها في الآية التي يُفسِّرُها، وجرى على ذلك معظم كتب التفسير كجامع البيان للطبري، والمحرر الوجيز لابن عطية، والبحر المحيط لأبي حيان، وغيرها.

والضرب الثاني من التصنيف: أن تختص كتبٌ بهذا التوجيه، فتعرض القراءة المتواترة أو الشاذة، ويمضي المؤلف في بيان وجهها ومعناها، وما استندت إليه من قواعد العربية، وقد جرى على ذلك طائفة من كتب التوجيه، كالحجة للفارسي، والحجة لابن زنجلة، والموضح لابن أبي مريم، وغيرها.

وقد عُني سيبويه في كتابه بتوجيه كثير من القراءات المتواترة والشاذة، وبيَّن معناها وما تؤول إليه في ضوء ما اختاره لها من استدلال، واستشهد على اختياره بطائفة من الشواهد الفصيحة؛ كالقرآن والشعر وأقوال العرب، وسوف نمثِّل لاختياره بطائفة من القراءات التي عَرَضَ لها لنطَّلع على منهجه في هذا الباب.

في قوله تعالى :﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(الأنعام:٢٧)، قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير والكسائي وأبو بكر عن عاصم[١]برفع الفعلين ﴿ نُكَذِّبُ ﴾ ﴿ وَنَكُونُ﴾.

وقد وقف سيبويه[٢]على هذه القراءة، وذهب إلى أن تقدير الرفع على معنيين: "أحدهما: أن يشرك الآخرُ الأولَ. والثاني: على قولك: دَعْني ولا أعودُ، أي: فإني ممَّن لا يعودُ، فإنما يَسْأل التَّرْكَ، وقد أوجب على نفسه أنْ لا عودةَ له البتة، تُرِك أو لم يُترك، ولم يُرِدْ أن يَسْأل أن يجتمع له الترك وألاَّ يعود".

---

(١) السبعة ٢٥٥، التيسير ١٠٢، النشر ٢٤٨/٢ .

(٢) الكتاب ٤٤/٣ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

واستشكل بعضهم – كما نقل مكي-[1]قول سيبويه؛ لأنَّ الكذبَ لا يجوز وقوعه في الآخرة، إنما يجوز في الدنيا. وأجاب عن ذلك: بأنَّ قولَه :﴿ وَإِنَّهُم لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: كاذبون في الدنيا في تكذيبهم الرسلَ وإنكارهم البعث، فيكونُ ذلك حكاية للحال التي كانوا عليها في الدنيا.

وقد أخذ علماء توجيه القراءات بالوجهين اللذين ذكرهما سيبويه في تخريج القراءة المذكورة[2].

وسأل سيبويه[3]أستاذه الخليل عن قراءة كسر ﴿إِنَّهَآ﴾ مِن قوله تعالى :﴿ وَمَا يُشعِرُكُم إِنَّهَآ إِذَا جَآءَت لَا يُؤمِنُونَ﴾ (الأنعام:١٠٩)، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأحد الوجهين عن أبي بكر عن عاصم[4]: ما منعها أن تكون كقولك: ما يدريك أنه لا يفعل؟ فقال: لا يَحْسُن ذا في ذا الموضع، إنما قال :﴿ وَمَا يُشعِرُكُم﴾، ثم ابتدأ فأوجب فقال:﴿ إِنَّهَآ إِذَا جَآءَت لَا يُؤمِنُونَ﴾، ولو قال :﴿ وَمَا يُشعِرُكُم إِنَّهَآ إِذَا جَآءَت لَا يُؤمِنُونَ﴾ كان ذلك عذراً لهم".

وشرح الفارسي في "الحجة"[5]كلامَ الخليل فقال: "ولو فتح (أن)، وجعلها التي في نحو: "بلغني أن زيداً منطلق" لكان عذراً لمن أخبر عنهم أنهم لا يؤمنون؛ لأنه إذا قال القائل: إن زيداً لا يؤمن، فقلت: ما يدريك أنه لا يؤمن؟ فالمعنى: أنه يؤمن. وإذا كان كذلك، كان عذراً لمن نَفَى الإيمان عنه".

وسأل سيبويه[6]الخليل عن قراءة باقي السبعة ﴿ أَنَّهَآ﴾ بفتح الهمزة في الآية نفسها، فأجابه: هي بمنزلة قول العرب: "ائت السوق أنَّك تشتري لنا شيئاً" أي: "لعلك"، فكأنه قال: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢٦٢/١.

(٢) انظر: الحجة للفارسي ٢٩٤/٣، والحجة لابن زنجلة ٢٤٥، والموضح ٤٦٤/١ .

(٣) الكتاب ١٢٣/٣ .

(٤) انظر: السبعة ٢٦٥، التيسير ١٠٦، النشر ٢٥٢/٢ .

(٥) الحجة ٣٧٨/٣.

(٦) الكتاب ١٢٣/٣ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال الفارسي[١]: "ويدل على صحة ذلك وجودته في المعنى: أنه قد جاء في التنزيل "لَعَلَّ" بعد العلم، وذلك قوله ﴿ وَمَا يُدرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ (عبس:٣). واستشهد بقول الشاعر[٢]:

أَرِيني جواداً مات هُزْلاً لأَنني أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مُخَلَّداً

وقد أفاد علماء توجيه القراءات من هذا التخريج للقراءتين، وقوَّوا ما ذهب إليه[٣].

وفي قوله تعالى :﴿يُضَٰعِفهَا﴾ (النساء:٤٠)، أشار[٤]إلى قراءتي "يُضَعِّفْهَا" و﴿يُضَٰعِفهَا﴾[٥]، وذهب إلى أن المعنى فيهما واحد، وهما لغتان قال: "تجيء فَاعَلْتُ لا تريد به عَمَلَ اثنين، ولكنهم بَنَوا عليه الفعل كما بَنَوهُ على أَفْعَل. ولم يخرج مَنْ وجَّه القراءتين[٦]عن توجيه سيبويه؛ إذ يقال: أَضْعَفْتُ الشيءَ، وضعَّفْتُه، كما يقال: كرَّمتُ وأكرمتُ.

وخرَّج سيبويه[٧]اختلاف القراء في قوله :﴿ يَومَ حَصَادِهِۦ﴾ (الأنعام:١٤١) بكسر الحاء وفتحها[٨]على أنها مصادرُ يجوز فيها فِعال وفَعال، ولم يَخْرُجوا عن توجيهه[٩].

وخرَّج سيبويه[١٠]اختلاف القراء في صرف ﴿ ثَمُودَ ﴾ وأمثاله من الأسماء التي تجري على القبائل والأحياء، وذهب إلى أنَّ صَرْفَها على أنها اسم للحي، فليس فيها إلا العلَمية، وذهب إلى أنَّ مَنْعَها على تقدير أنها اسم للقبيلة، ففيها علتا العلمية والتأنيث، ولم يَخْرُج عن تعليله مُوَجِّهو القراءات من بعده[١١].

---

(١) الحجة ٣/٣٧٩ .

(٢) البيت لحطائط بن يعفر أو حاتم في ديوانه ٢١٨، وهو في مجاز القرآن ١/٥٥، وابن يعيش ٨/٧٨٩ .

(٣) انظر: جامع البيان ٩/٤٨٨، معاني القرآن للزجاج ٢/٢٨٢، الحجة لابن زنجلة ٢٦٥، الموضح١/٤٩٢.

(٤) الكتاب ٤/٦٨ .

(٥) قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿ يُضَعِّفْهَا ﴾، وقرأ الباقون ﴿ يُضَاعِفْها﴾ .انظر: السبعة ١٨٤ .

(٦) انظر: الحجة للفارسي ٣/١٦١، الحجة لابن زنجلة ٢٠٣ .

(٧) الكتاب ٤/١٢ .

(٨) قرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي بكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتحها. انظر: السبعة ٢٧١، التيسير ١٠٧ .

(٩) انظر: الحجة للفارسي ٣/٤١٦.

(١٠) الكتاب ٣/٢٥٢. وقد اختلف القراء في صرف ثمود ومنعه. انظر: السبعة ٣٣٧.

(١١) انظر: الحجة للفارسي ٤/٣٥٣ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وعلّل سيبويه إثبات ياء ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ (الرعد:٩) وحذفها عند القراء[١]، فإثبات ياء المنقوص لأنه مُعَرَّف بأل غير منون، ومن العرب مَنْ يحذف الياء في الوقف، شبَّهوه بما ليس فيه أل، وفعلوا هذا لأن الياء مع الكسرة تُسْتَثقل كما تستثقل الياءات. وذهب موجِّهُو القراءتين إلى ما ذهب إليه[٢].

وخَرَّج قراءة (تلتقطه بعض السيارة)[٣](يوسف:١٠) على أن المذكَّر قد يكتسب التأنيث عند إضافته إلى مؤنث[٤]، كما خرَّج قراءة ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ (الأعراف:١٨٦) بجزم "وَيَذَرْهُمْ"[٥]، قال[٦]: "وذلك لأنه حمل الفعل على موضع الكلام لأن هذا الكلام في موضعٍ يكون جواباً؛ لأن أصل الجزاء الفعل، وفيه تعمل حروف الجزاء، ولكنهم قد يضعون في موضع الجزاء غيره". وهذا توجيه جمهور الذين وجَّهوا القراءة من بعده[٧].

---

(١) قرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف، والباقون لا يثبتون الياء في وصل ولا وقف. انظر: السبعة ٣٥٨، وغاية الاختصار ٣٦٣/١ .

(٢) انظر: الحجة للفارسي ١٣/٥، والموضح ٧٠١/٢.

(٣) وهي قراءة الحسن ومجاهد وأبي رجاء وقتادة. انظر: البحر ٢٨٤/٥ .

(٤) الكتاب ٥١/١ .

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي، وقرأ أبو عمرو وعاصم بالرفع والياء، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالرفع والنون. انظر: السبعة ٢٩٨، التيسير ١١٥ .وهي قراءة حمزة والكسائي، وقرأ أبو عمرو وعاصم بالرفع والياء، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالرفع والنون. انظر: السبعة ٢٩٨، التيسير ١١٥ .

(٦) الكتاب ٩٠/٣.

(٧) الموضح ٥٦٧/٢، الحجة لابن زنجلة ٣٠٤ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث السادس: حوار سيبويه مع علماء عصره في مسائل من التفسير

حظي سيبويه بطائفة من أئمة العلم في عصره، من أمثال الخليل ويونس وأبي عمرو بن العلاء وأبي الخطَّاب، فحاورهم في مسائل من التفسير، ونقل عنهم آراءهم في كتابه، بل إنه على ما يبدو كان مطَّلعاً على ما يدور في حلقات التفسير في عصره، وتبين لنا من قبل أنه كان ينقل عنهم بلفظ "المفسرين"، مما يعني أنه كان متابعاً للحركة العلمية المصاحبة لتفسير القرآن الكريم.

وتبدو أهمية هذا الحوار في تسجيل هذه الأقوال منسوبة إلى أصحابها، وبذلك يُعَدُّ كتاب سيبويه مصدراً غنياً، حَفِظ ما تردَّد في بعض مجالس هؤلاء العلماء في هذه الفترة المبكرة من عصور التدوين والتصنيف، بل إن كتابه مصدر لها أصيل.

ومن أمثلة التفسير المصاحَب باستدلال يتصل بعِلْم من علوم القرآن يُسَمَّى المكِّي والمدني، ما نقله عن أبي الخطاب[1]: أن قولك للرجل "سلاماً" تريد تَسَلُّماً منك كما قلت: براءةً منك تريد لا ألتبس بشيء من أمرك، وأن أبا ربيعة كان يقول: "إذا لقيت فلاناً فقل له سلاماً، فسأله، ففسَّره له بمعنى: براءةً منك، وأن هذه الآية ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰما ﴾ (الفرقان:٦٣) بمنزلة ذلك؛ لأن الآية فيما زعم مكية، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يُسَلِّموا على المشركين، ولكنه على قولك براءةً منكم وتَسَلُّماً، لا خير بيننا وبينكم ولا شر".

وواضح من مقدمة سيبويه التي قدَّم بها لنقله عن أبي الخطاب أنه كان يعتمد هذا التفسير، فالسلام في الآية بمعنى البراءة والتَّسَلُّمِ وعدم الالتباس بشيء من الأمر. واستدل على ذلك بكون الآية مكية، ولم يُؤْمَرْ المسلمون بالتسليم على المشركين وقتئذ.

وقد فسَّر الطبري[2] على ما فسَّر به سيبويه، فقال: "وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القول أجابوهم بالمعروف من القول والسداد من الخطاب"، وأورد روايات مأثورة تفيد ذلك، وكذلك الزمخشري[3]؛ إذ يقول: "أي: قالوا سداداً من القول يَسْلَمُون فيه من الإيذاء، والمراد بالجهل السَّفه".

---

(١) الكتاب ١/٣٢٤.

(٢) جامع البيان ١٧/٤٩٣ .

(٣) الكشاف ٣/٢٩١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وسأل سيبويه أستاذه الخليل عن قوله تعالى :﴿حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَت أَبوَٰبُهَا﴾ (الزمر:٧٣) أين جوابها؟ وعن قوله :﴿ وَلَو يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذ يَرَونَ ٱلعَذَابَ﴾ (البقرة:١٦٥)، وعن قوله: ﴿وَلَو تَرَى إِذ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ (الأنعام:٢٧)، فأجابه بجواب ينسحب على الآيات كلها، فقال[١]: "إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم؛ لعِلْمِ المخبِر لأي شيءٍ وضع هذا الكلام؟[٢]"

وسأل سيبويه[٣]أستاذه عن قوله تعالى :﴿وَيكَأَنَّهُ لَا يُفلِحُ ٱلكَٰفِرُونَ﴾ (القصص:٨٢)، فأجابه بأنها: ﴿وي﴾ مفصولة من ﴿كأن﴾، والمعنى وقع على أنَّ القوم انتبهوا، فتكلَّموا على قَدْر عِلْمِهم، أو نُبِّهُوا فقيل لهم: أما يشبه أن يكون هذا عندكم هكذا ؟" قال سيبويه[٤]: "وأَمَّا المُفسِّرون فقالوا: ألم تَرَ أنَّ الله".

وقد أسند الطبري[٥]هذا القول الذي نسبه سيبويه للمفسرين إلى قتادة، ثم صححه، وأشار إلى القول الذي نقله سيبويه عن الخليل.

ونقل سيبويه تفسير أبي عمرو بن العلاء لقوله تعالى :﴿ أُوْلِي أَجنِحَة مَّثنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾(فاطر:١)، إذ يقول[٦]:كأنك قلت: أولي أجنحة اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة"، وقد ذكر الطبري[٧]هذا القول، ونسبه إلى بعض البصريين.

وسأل سيبويه أستاذه الخليل عن قوله تعالى :﴿ وَلَئِن أَرسَلنَا رِيحا فَرَأَوهُ مُصفَرّا لَّظَلُّواْ مِن بَعدِهِۦ يَكفُرُونَ﴾ (الروم:٥١) إذ ورد جواب الشرط بالفعل الماضي، وهو في الأصل مستقبل لأنه مجازاة،

---

(١) الكتاب ١٠٣/٣ .

(٢) انظر: القرطبي ٥٨٥/١ .

(٣) الكتاب ١٥٤/٢ .

(٤) الكتاب ١٥٤/٢ .

(٥) جامع البيان ٣٣٩/١٨، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣٠٢٢/٩، ومجاز القرآن ١١٢/٢، ومعاني القرآن للفراء ٣١٢/٢ .

(٦) الكتاب ٢٢٥/٣.

(٧) جامع البيان ٣٢٦/١٩ .

فأجابه[1]: هو في معنى: لَيَظَلُّنَّ، كما تقول: "والله لا فعلت ذاك أبداً" تريد لا أفعل، وفي هذا التقدير سدَّ جواب القسم مَسَدَّ جواب الشرط.

وقد أشار السمين[2] إلى هذا المعنى فقال :"﴿ لَّظَلُّواْ ﴾ جواب القسم، وهو ماض لفظاً، مستقبل معنى".

وسأل سيبويه أستاذه الخليل عن تفسير معنى قوله تعالى :﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيشٍ﴾ (قريش:١)، وتَعَلُّق اللام، فأجابه[3]: "بأنه متعلق بقوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾ (قريش:٣)، أي: فليعبدوه لإيلافهم، فإنه أظهرُ نِعَمِه عليهم".

وليس غريباً ما نجده من سعة حواره مع أستاذه الخليل في مسائل التفسير؛ لأن المؤرخين ذكروا أنه كان كثير المجالسة له[4].

* * *

(١) الكتاب ١٠٨/٣.

(٢) الدر المصون ٥٤/٩ .

(٣) الكتاب ١٢٧/٣. وانظر: الدر المصون ١١٢/١١.

(٤) إنباه الرواة ٣٥٢/٢.

خاتمة

مما تقدمَ تبيَّن لنا وجوه من مشاركة سيبويه في تفسير آيات الذكر الحكيم من خلال مصنفه الرائد "الكتاب"، وهو في علوم العربية، ولكنه لا يعدم سوانح له ينثر من خلالها نظراته في كتاب الله. وتبيَّن لنا أن سيبويه ذو بصيرة في فَهْم القرآن الكريم. وقد استعرضنا بعض أقواله في مفردات القرآن: الأفعال والأسماء والأدوات، ثم نماذج من تفسيره التحليلي، فتقديره للمحذوف، فتفسيره الآيات المشكلة في الإعراب، ثم توجيهه لبعض القراءات، واختتمنا البحث بذكر جانب من حواره مع علماء عصره في مسائل من التفسير، ولا نريد أن نبالغ في نتائج البحث فنضعه في مصافِّ المفسرين، وإنما وددنا أن نُجْلِي مشاركته فيه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثبت المصادر والمراجع

-الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر.

-الأدوات النحوية في كتب التفسير، د. محمود أحمد الصغير، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

-الإغفال لأبي علي الفارسي، تحقيق: د. عبد الله الحاج إبراهيم، الإمارات العربية، مركز جمعة الماجد، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .

-إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الفكر العربي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

-البحر المحيط لأبي حيان، بيروت، مؤسسة دار إحياء التراث.

-بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية.

-البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

-تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي.

-تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

-التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري، تحقيق: علي البجاوي، مصر، مكتبة عيسى البابي الحلبي.

-تطور تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد، مطبوعات جامعة بغداد.

-تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة الباز، مكة المكرمة ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

-تفسير القرآن العظيم لابن كثير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

-تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، مصر.

-التفسير الكبير للرازي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة.

-التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، جدة، ١٤٢٢هـ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

-التفسير والمفسرون للذهبي، مصر، الطبعة الأولى.

-التيسير في القراءات السبع للداني، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

-جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

-حجة القراءات لابن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

-الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي، تحقيق: بدر الدين قهوجي وزميله، دمشق، دار المأمون، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

-دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د. محمد عبد الخالق عضيمة، مصر.

-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

-الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

-الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، د. أحمد مكي الأنصاري، دار المعارف، مصر.

-السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.

-سير أعلام النبلاء للذهبي، بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

-شرح كتاب سيبويه للسيرافي، تحقيق: د. رمضان عبد التواب وزملائه، مصر، ١٩٨٦م.

-الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

-طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.

-غاية الاختصار للهمذاني، تحقيق: د. أشرف محمد طلعت، جدة، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن.

-غاية النهاية في طبقات القرآن، عناية برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

-فتح الباري شرح صحيح البخاري، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

-فتح القدير للشوكاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

-كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

-الكشاف للزمخشري، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان.

-اللهجات في الكتاب لسيبويه، د. صالحة راشد غنيم، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، من مطبوعات جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

-مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، مصر، مكتبة الخانجي.

-مجاز القرآن لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تحقيق: د. محمد مصطفى بن الحاج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٢هـ-١٤٠١م.

-المحرر الوجيز لابن عطية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

-المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل، تحقيق: د. محمد كامل بركات، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

-مشكل إعراب القرآن لمكي، تحقيق ياسين السواس، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

-معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، مطبوعات جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

-معاني القرآن للفراء، تحقيق: محمد علي النجار وزميله، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

-معاني القرآن للأخفش، تحقيق د. فائز فارس، الطبعة الثانية، الكويت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

-معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الأولى، بيروت، ١٩٩٣م.

-مغني اللبيب لابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك وزميله، دمشق.

-مفتاح السعادة ومصباح السيادة، طاش كبري زاده، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

-مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

-المقتضب للمبرد، تحقيق: د. محمد عبد الخالق عضيمة، مصر.

-مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

-الموضح عن وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم الفسوي، تحقيق: د. عمر حمدان الكبيسي، جدة، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

-النحو وكتب التفسير، د. إبراهيم عبد الله رفيدة، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر، الطبعة الثانية.

-النشر في القراءات العشر لابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تصحيح الشيخ علي الضباع.

هذا الكتاب منشور في